آداب الملوك

الثعالبي ، عبد الملك بن محمد بن اسماعيل ، 961-1038
آداب الملوك / لأبي منصور الثعالبي ، إعداد وتقديم عبد الحميد حمدان .ط1.-
القاهرة : عالم الكتب ، 2007
104ص ، 20 سم .- (زبدة التراث ؛ 16)
تدمك : 977-232-557-8
1- الملوك والحكام في الأدب العربي
أ- حمدان، عبد الحميد (محقق ، مقدم)
ب- العنوان 810.9031

عالم الكتب
نشر ، توزيع ، طباعة

- الإدارة :
16 شارع جواد حسني - القاهرة
تليفون : 3924626
فاكس : 002023939027

- المكتبة :
38 شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة
تليفون : 3926401 - 3959534
ص . ب 66 محمد فريد
الرمز البريدي : 11518

- الطبعة الأولى
1428 هـ - 2007 م

- رقم الإيداع 23510 / 2006
- الترقيم الدولي I.S.B.N
977-232-557-8

- الموقع على الإنترنت : www.alamalkotob.com
- البريد الإلكتروني : info@alamalkotob.com

زبدة التراث
(١٦)

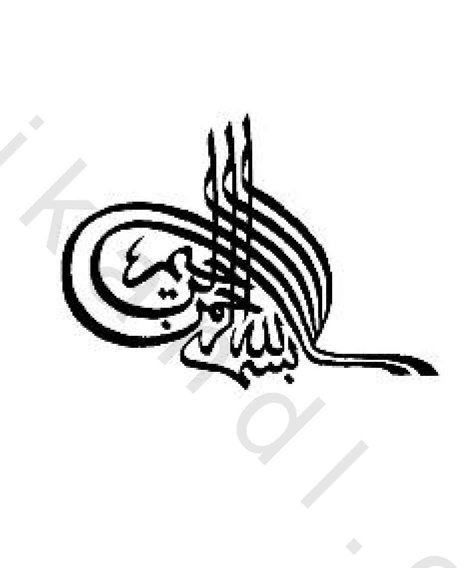
آداب الملوك

لأبي منصور الثعالبي
(٣٥٠-٤٢٩هـ)

إعداد وتقديم
الدكتور عبد الحميد حمدان

الطبعة الأولى
١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م

عالم الكتب



سلسلة زبدة التراث

تهدف هذه السلسلة فى المقام الأول إلى إحياء تراثنا الحضارى الدينى والعلمى بتبسيطه وجعله فى متناول يد الجميع، وخاصة شباب جيلنا المعاصر، وتقوم هذه السلسلة على أساس انتقاء زبدة نصوص شوامخ المؤلفات والمصنفات لأعلام الفكر العربى والإسلامى وإخراجها فى صورة موجزة لا تخل، بل تفى بالغرض الذى وضعت من أجله، دون الإثقال على القارئ الكريم بالتفاصيل المطولة أو الحواشى المسهبة. وقد جاء الاختيار غير عشوائى أو تعسفى، لكى يرضى جميع الأذواق والاتجاهات؛ وليكون مرآة صادقة لتراث حضارتنا الزاهرة وصانعيها على مر العصور، وإتاحة الفرصة للرجوع إلى الأصل الذى لا تغنى هذه الزبدة عنه بطبيعة الحال؛ فالغرض الأساسى هذه السلسلة هو تحبيب التراث إلى النفوس وتقريبه إلى الأذهان.

وستعتمد هذه السلسلة على أمهات الكتب المحققة بواسطة محققين ثبت، وكذلك على بعض المخطوطات عند الاقتضاء.

الناشر

تقديم

ولد الثعالبى، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل فى نيسابور عام ٣٥٠هـ.[١] ولا نعرف الكثير عن حياته رغم شهرته الواسعة واعتباره من ألمع أدباء عصره فى البلاغة والفصاحة[٢]. وقد درس الثعالبى على يد أبى بكر الخوارزمى، وبديع الزمان الهمدانى. وتكشف مؤلفاته أنه كان علمًا كبيرًا وأديبًا فذًّا. وتنقل فى حياته التى طالت إلى ثمانين سنة[٣] بين بخارى وجرجان وغزنة وأقام بها ثم رحل إلى نيسابور؛ حيث قضى بقية عمره حتى وفاته فى عام ٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م.

---

(١) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ١٧٨، وسير أعلام النبلاء للذهبى ١٨/ ٤٣٧؛ وموسوعة العلماء والأدباء العرب والمسلمين، دار الجيل، بيروت، ٢٠٠٥، ج ٤/ ٨١٧ - ٨٢٢.

(٢) انظر مقدمة كتابه "آداب الملوك" بتحقيق الدكتور جليل العطية، بيروت، دار الغرب الإسلامى، ١٩٩٠.

(٣) انظر ابن العماد، شذرات الذهب، ٣/ ٢٤٦.

وألف الثعالبى كتابه "آداب الملوك" لمأمون بن مأمون الملقب بخوارزم شاه بين سنتى ٤٠٣ – ٤٠٧هـ. وهذا الكتاب يعد من أهم كتب الثعالبى؛ حيث أودعه خلاصة تجاربه فى التأليف، وكان فى ذلك الوقت قد تجاوز الخمسين من عمره[١].

وتدل مقدمة كتابه هذا على براعة الثعالبى اللغوية ، وتمكنه من استيعاب الفكر الإسلامى. هذا وللثعالبى مؤلفات أخرى كثيرة منها ما نشر ومنها مازال مخطوطًا. وقد أورد الصفدى فى كتابه الوافى بالوفيات،[٢] قائمة طويلة بكتبه، وقد نشر فيها على سبيل المثال كتاب "يتيمة الدهر ومحاسن أهل العصر"، وهو أشهر ما كتبه الثعالبى، وكتاب "شمس الأدب فى استعمال العرب"، وكتاب "لطائف المعارف"، وكتاب "محاسن كلم النبى صلى الله عليه وسلم"، وكتاب "الأشباه والنظائر"، وكتاب "اليواقيت فى بعض المواقيت"، وغير ذلك من المؤلفات القيمة.

دكتور عبد الحميد صالح حمدان

---

(٤) انظر مقدمة كتابه "آداب الملوك" بتحقيق الدكتور جليل العطية، بيروت، ١٩٩٠.

(٥) الوافى بالوفيات للصفدى، ١٩/ ١٩٤.

كتاب

آداب الملوك

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الحمد لله الذي الأمر له، والخلق بيديه والاستعانة به، والتفويض إليه، وصلواته على بشير الثواب، ونذير العقاب، محمد المصطفى وآله وصحبه، ما طلع حاجب شمس ولاح جبين قمر.

ثم الحمد الله الذي استخلف الملوك في أرضه واسترعاهم أمور خلقه، وجعلهم المدافعين عن سواد الأمة وبياض الدعوة، والأزمة على الملة والحوزة.

ثم الحمد لله الذي جعلنا ممن أدرك عصر مولانا الأمير السيد الملك العادل ولي النعمة أبي العباس مأمون بن مأمون خوارزم شاه — مولى أمير الأمير — أدام الله سلطانه، وحرس عِزّه ومكانه، وأسعدنا بالوصول إلى رواق المجد، ومستقر الملك من حضرته، وأسبغ علينا النعمة في الاعتصام بعروة العزّ من خدمته، والدخول في جملة حاشيته وغاشيته، حتى رأيناه مجتمعاً فيه ما رويناه عن أعيان الملوك متفرقاً، وشاهدنا منه عياناً ما قرأناه في الكتب وسمعناه في السير من محاسن

أماثلهم، وخصائص أعاظمهم، وأفاضلهم ، فإن ذكرنا ما يتفاخر به الملوك من كرم الأصل وقدم البيت، كان الشرف نسب أسلافه، والمجد لسان أوصافه، وإن أفضنا فى حديث الصورة – الذى هو أول السعادة وعنوان الخير والنعمة، وما زالت العرب والعجم تمدح ملوكهم به، وتعتد لهم بفضله – رأينا فى وجهه القمرى: التصوير الشمسى التأثير، ما ينطقنا بتسبيح رب العالمين والثناء على أحسن الخالقين، عوَّذنا به جل جلاله من العيون العاينة، والصدور الخائنة، وإن تجارينا فى الأخلاق العظيمة والهمم البعيدة والآراء السديدة والسير الحميدة، وسائر المعانى والمناقب الملوكية، فهو – أعز الله نصره وأدام ملكه – جامع أطرافها وناظم أشتاتها والآخذ برقابها والبالغ أقصى غايتها على اقتبال شبابه وغضاضة عوده، فكيف إذا انتهى إلى أشد الكهل وأسفر له صبح الشيب؟! وإن أجرينا إلى حديث الآداب والعلوم، لم نشبهه فيها إلا بسميَّه المأمون، ولم يشك من سمع عالى كلامه، وعاين ثمار أقلامه فى أن البلاغة عفو خطراته والبراعة من أدنى صفاته، وإن تذاكرنا ما شمل رعاياه من العدل وعم بلاده من الأمن ونفق فى سوقه من بضائع الفضل وتجدد فى أيامه – أدامها الله – من آثار الديانة وعاد إليها من عادات المروءة – شهدت أيامه الواضحة وأدلته الصادقة، بأنه من الله تعالى بين تأييد وتأبيد، ومخصوص من عنايته بعقد وكيد، وإن له – عزّ اسمه – سرّاً فى علاه يفضى به إلى مناه من دينه ودنياه.

فإلى من جمل الزمان بأيامه وأحيا وأحبى محاسن السير بمكانه يرغب بالنيات الصادقة والضمائر الخالصة فى حراسة سلطانه وتثبت أركانه وإطالة بقائه على اليد والكلمة والراية متظاهرة البسطة والغبطة والولاية وتيسير الفتوح له شرقاً وغرباً وتمكينه من نواصى أعدائه سلماً وحرباً حتى يبلغ أفضل ما يقسمه السعود، ويستغرق أقصى ما تعلو به الجدود.

ثم إن هذا الكتاب الذى خرج أمره العالى – زاده الله علوًّا- بتأليفه فى السياسة التى هى آلة السلطان وأداته، بها نظام الملك وعليها مداره، قد جعلت له مقدمة وسياقة، وبنيته على أن يتضمن الغُرَر والنكت واللُّمع والعهد مما يصلح للملوك وأصحابهم، وذكر ما لهم وعليهم، ورتبته فى عشرة أبواب، يشتمل كل منها على عدة فصول مترجمة بذكر مودعاتها:

فالباب الأول: فى الإفصاح عن علو شأن الملوك وشده الحاجات إليهم وما يلزم الناس من طاعتهم وإعظامهم وإجلالهم.

والباب الثاني: فى صدور من الأمثال والتشبيهات الملوكية والسلطانية.

والباب الثالث: فى نكت كلام الملوك ووصاياهم وتوقيعاتهم ولطائف الفضلاء فى مخاطباتهم.

والباب الرابع: فى السياسة وأقاويل الملوك وغيرهم ومواعظ الحكماء للملوك.

والباب الخامس: فى أخلاق الملوك وعاداتهم ورسومهم المحمودة والمذمومة فى السياسة وغيرها.

والباب السادس: فى اختيار الملوك: الوزراء والعمل والخدم.

والباب السابع: فى آفات الملوك.

والباب الثامن: فى أعداء الملوك وتدبير الجيوش والحروب.

والباب التاسع: فى جمل ما ينبغى للملك أن يأتيه ويزدريه فى السياسات وغيرها.

والباب العاشر: فى خدمة الملوك وآداب أصحابهم.

وكنت أردت أن أترجمه بالنسبة إلى الاسم الشريف – ثبته الله تعالى – فأخبرنى أبو عبد الله محمد بن حامد أن بعض المؤلفين سبقنى إليها فيما ألَّفه برسم المجلس – حرسه الله وآنسه – من كتاب فى علم الكلام، فقلت الآن: إن سميته الملوكى كنت صادقًا، وإن لقَّبته تحفة المملوك وعدة الملوك لم أك كاذبا، لكنى آثرت تفخيمه بالخوارزم شاهى ليكون أنبه لاسمه، وأبعد لصيته؛ فالمصنف لا ينازع فى ترجمة كتابه، كما أن الوالد لا يغلب على اسم ولده، ومولانا الملك العادل خوارزم شاه – أدام الله أيامه – وإن كان علمًا بل عالمًا فى علم السياسة وجمع مصالح الخاصة، فإن الذكرى تنفع المؤمنين وللكتب الجديدة لذة فى نفوس المحصلين، تدعوهم إلى مطالعتها، والاقتباس منها

والاستمتاع بها، وإذا كان الملوك أعقل الناس وأشرفهم وأفضلهم، كان ما يصلح من الآداب لهم أشرفها وأفضلها، لا سيما إذا تميزوا عن أشكالهم ونظائرهم بمزية المعرفة واستضاءوا بنور الحكمة، وإنما أفنيتهم موارد جلب، ومواقف طلب، يحمل إليها ما ينفق فيها، ويجمع لها ما يطلب بها، وهذا ما أفتتحه من سياقة أبواب الكتاب، والله الموفق للصواب.

فى الإفصاح عن علو شأن الملوك وشدة الحاجات إليهم، وما يلزم الناس من طاعتهم وإعظامهم وإجلالهم.

قد عظم الله – عز اسمه – شئون الملوك، ورفع أقدارهم وأجل إخطابهم، ومكن لهم فى أرضه وأكرمهم بسلطانه، وغشاهم القبول والمهابة وأعطاهم العزة والأبهة، لما علم من صلاح عباده بهم وافتقار العامة والخاصة إلى سياستهم وحياطتهم فى أمور دينهم ودنياهم وآخرتهم، وجعل تمليكه لهم [ـ] إياهم وبسطة أيديهم من الحكمة البالغة، ونعمه السابغة، وأجرى طاعتهم مجرى الفرائض التى يثيب من أداها ويعاقب من تعداها، وكان من الفروض اللازمة والحقوق الواجبة، وشروط الطاعة المأخوذة ومعالم الرشد المتبعة، تعظيم من عظم الله، وتمجيد من كرم الانقياد لمن سلّط، والتسليم لمن مكن له وبسط. وما أشبه حاجة الرعية إلى الراعى كحاجة الجسد إلى الرأس، وما أقرب فضل الراعى على الرعية فى فضل الفرائض؛ والسائس والفارس على الدابة، ولولا الملوك لأكل الناس بعضهم بعضاً، كما أنه لولا الراعى لأتت السباع على الماشية.

وما أحسن قول عبد الله بن المعتز فى بعض فصوله القصار: فساد الرعيّة بلا ملك، كفساد الجسم بلا روح.

وكثيراً ما أقول وأحب أن يحكى عني: كما أن أحوال الملوك عالية وأوامرهم نافذة وعيشتهم راضية، فمؤنهم كثيرة وهمومهم كبيرة ومحنهم عظيمة، ومن تأمل بعين عقله أمورهم، لم يستكثر ما أفيض عليهم من المواد؛ إذ قد لزمهم لرعاياهم أن يحوطوا من ورائها ويدافعوا عن دهمائها، ويتحملوا من أثقالها أضعاف ما فضلوا فى المعيشة عليها، ولم يستثقل العوام ما قدّر من أوقاتها؛ إذ قد رقدتها بتيقظ من يمنع حريتها، واطمأنت بنصب من يحمى حماها وصار ما يختزنه الملك من الأموال عدة لها فى دفع معرة أعدائها، وعند طروق نوائبها، وجروا بأسرهم مجرى الشركاء الذين يجب عليهم أن لا يتحاشوا ولا يتحاسدوا.

ولله در الرشيد: حين كان فى بعض أسفاره، فألح عليه الثلج ليلة، فآذاه فقال له بعض أصحابه: يا أمير المؤمنين أما ترى ما نحن فيه من الجهد والنصب ووعثاء السفر، والرعية قارة، وادعة، نائمة؟ فقال: اسكت: للرعية المنام، وعلينا القيام، ولابد للراعى من حراسة الرعية، وتحمل الأذية.

وإلى هذا المعنى أشار أبو محمد التيمى فى قوله للرشيد من قصيدة:

غضبت لغضبتك الصوارم والقنا   لما نهضت لنصرة الإسلام

ناموا إلى كنفٍ لعدلك واسع وسهرت تحرسُ غفلة النوام

وقد أجمعت العقول على ما أقول، وشهدت البصائر، بأن من عظّم ظل الله في أرضه، والمؤتمن على حقه، واليد المبسوطة على خافقه، وسمع له وأطاعه ووالاه وشايعه، حمد يومه وغده ورعا من العيش أرغده، ومن حاد عن كلمته وحال عن طاعته، كتبت عليه الذلة وأعربت به الشقوة، ثم صَلِيَ بحر السيف قبل حَرّ النار وحصل على خسران الدارين، ذلك هو الخسران المبين.

فصل

ممّا نطق به القرآن من ذكر الملوك

فقد قرن الله طاعة الملوك بطاعته وطاعة رسوله فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (النساء / ٥٩).

وذكر نعمته في استخلافهم فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ (الأنعام / ١٦٥).

وقال حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (المائدة / ٢٠).

وقال وقد بعثه وأخاه إلى أطغى الملوك وأغواهم: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ

فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ (طه/ ٤٣، ٤٤).

وكان يحيى بن معاذ إذا قرأ هذه الآية يقول: إلهي هذا رفقك بمن يدعي الربوبية، فكيف بمن يقرّ لك بالعبودية؟

وقال عزّ من قال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ﴾ (آل عمران ٢٦) فدلّ بانتقال الملك من أمة إلى أمة وخروجه من أسرة إلى أسرة على أنه يقع بقصد من الحكيم – جلّ ثناؤه – وهو فيه على سبيله في ارتياد الأصلح وإيثار الأعود، وصار إقراره الملك في نصاب ونزعه إياه من آخر من الأمور التي يفعلها الله بحكمته ويعتمد بها مصالح بريّته.

فصل

في تعظيم الناس الملوك على الدهر وإفراط بعضهم على بعض في إجلالهم حتى اتخذوهم آلهة من دون الله

بلغ من الإفراط في تعظيم الملوك وإجلالهم في الجاهلية والإسلام، لما رأوهم يحيون ويميتون ويرفعون ويضعون، يولون ويعزلون ويعطون ويحرمون أن فتنوا بهم وجروا مجرى الغوغاء والغواة في اتخاذهم آلهة وأرباباً يعبدونهم كما يعبد الله الخلّاق الرزّاق الواحد القهّار، ورضي بذلك غير واحد من جهلة الملوك: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى

حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ ﴾ (البقرة: ٢٥٨) وقال فرعون ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ (النازعات: ٢٤) وزين لهم هذه الدعوى الشنيعة قوم من كفرة الفلاسفة وفسقة أهل الأهواء والبدع وشياطين الإنس، فقالوا فى بعض مقالاتهم ورقاعاتهم إنّ روح البارى – سبحانه – تحلّ فى الملك فيعبد إلى أن تزول عنه وتحلّ فى غيره، ومنهم من يقول إنّ الملك من ملوك الأرض لا يخلو من جزء يحل فيه من روح البارى، ثمّ يكون فخامة سلطانه، وعلو شأنه، بحسب ذلك الجزء فى القلة والكثرة والزيادة والنقصان. تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا، وكما زعموا أن الجزء من حسن صورتهم ونوره يحلّ فى الغلام الصبيح والجارية الوسيمة إلى أن يلتحى الغلام وتكبر الجارية فيزول ذلك عنهما، وبلغنى أن قوماً من الصوفية يعتقدون هذا المذهب الردىء، ويرون هذا الرأى المستحيل، ويقال لهم: الحلولية.

وفى ذلك يقول ابن نباته السّعدى متغزلاً:

نفسى فداؤك من بدرٍ على غُصُنٍ ... تكاد تأكله عيناى بالنّظر

إذا تفكّرتُ فيه عند رؤيته ... صدّقتُ قولَ الحُلوليين فى القَدَرِ

وفى تجويز الحلول يقول أبو على محمد بن الحسن الحاتمى – والحديث ذو شجون:

لى حبيبٌ لو قيل ما تتمنى ... ما تعديته ولو بالمنونِ
أشتهى أن أحلَّ فى كل جسمٍ ... فأراه بلحظ كل العيونِ

وكان المقنّع - لعنه الله - تجزّأ فى طريق الحلوليين حتى ادّعى الإلهية، ودعا الناس إلى عبادته، وكان يقول فى دعواه إنَّ الله تعالى خلق آدم فتحول فى صورته، فلما قبضه تحوّل فى صورة نوح، ثمّ جعل يتحول فى صورة الأنبياء والملوك حتى كان آخرهم أبو مسلم، فلما قُتل تحول إلى هاشم - يعنى نفسه - وتابعه خلق من ضلاّل الناس بما وراء النهر، فاشتدت شوكته وعظمت فتنته، حتى أهلكه الله تعالى فى أيام المهدى فكفّ شرّه وكفى أمره، وقد بقيت إلى اليوم بقية من أتباعه بما وراء النهر يقال لهم "المبيّضة" وللولاة عليهم خراج وضريبة.

وكان قوم من الريوندية افتتنوا بأبى جعفر المنصور، فخرج يوماً من سرادقه فرأى قوماً منهم يسجدون له، ويدعونه كما يدعى الله تعالى، فأنكر عليهم واستتابهم فلم يتوبوا، ولم يتوبوا فأمر بقتلهم، فقتل بعضهم، ونجا بعضهم وقد رجعوا عن رأيهم فخرجوا عليه بغتة، ووضعوا السيوف فى أصحابه، فكانت الدبرة عليهم وحاق المكر السيئ بهم وانقضى أمرهم.

وقد كان عرض مثل ذلك لأمير المؤمنين على - عليه السلام - إذ كفر قوم من الغلاة فى التشيّع فقالوا له: أنت إلهنا ومعبودنا، فلما

زجرهم ولم ينزجروا وأصروا على ضلالتهم أمر قنبراً – مولاه بإحراقهم؛ ففي ذلك يقول عليه السلام:

لما رأيت الأمر أمراً منكراً أججت ناري ودعوت قنبرا

وكان الناس في زمان الأكاسرة يدعونهم الأرباب، ويقرون على أنفسهم بالعبودية، ولا يتجاسرون على أن يلبسوا ما يلبسه الملك من الثياب أو يركبوا ما يركبه من الدواب أو يطعموا ما يطعمه من الطعام والشراب، وينزلون لهم عن كل علق نفيس يقع بأيديهم.

ومن آداب خدم الملوك، أن يقتدوا بهم في إيثار الملوك بكل ما يصلح لهم ويليق بهم. وإلى هذا ذهب عمرو بن مسعدة في قوله للمأمون، وقد كان رأى تحته فرساً رائعًا ينظر إليه نظر مستحسن له، معجب به، فقاده عمرو إلى حضرته، وكتب إليه بهذه الأبيات:

يا إماماً لا يُدانيه إذا عُدَّ إمامُ
فَضلَ الناس كما يفضل نقصاناً تمامُ
قد بعثنا بجواد مثله ليس يُرامُ
وجهُه صُبحٌ ولكن سائر الجسم ظلامُ
والذي يَصلحُ للمولى على العَبد حَرامُ

فصل

في كون الملوك أسباباً لظهور

ثمرات العلوم والآداب ولطائف الصناعات

من حسن آثار الملوك، ويمن حدودهم، واتصال السعود بهم، ووقوف الآمال عليهم وانصراف الرغبات إليهم، أن حكماء البلاد وعلماء الملك ورؤساء الصناعات يخدمونهم بنتائج أفهامهم ويتقربون إليهم بثمرات عقولهم ويتأنقون فيما يستخرجونه أو يصنفونه بأسمائهم؛ فلا تكاد تحصل غرّة كريمة أو حكمة بديعة أو هندسة غريبة، إلاّ إذا كانوا المقصودين بها والمرجوين لارتضائها، فلولا الأفاضل من سلف الملوك لضاعت علوم كثيرة وبطلت حِكم جليلة.

وقد كانوا يفرغون الحكماء لشئونهم، ويجرون عليهم كفاياتهم، حتى نظروا بأنفس مجتمعة، وقوى وافرة، وأذهان فارغة، فاستخرجوا الآلات والأدوات والملاهي التي تكون جِماماً للنفس وراحة بعد الكدّ وسروراً يداوي فرح الهموم، فصنعوا من المرافق وصاغوا من المنافع، كالقرسطونات وكأصناف المزامير والمعازف، واستخرجوا من العلوم كالطّب والحساب والهندسة والتنجيم واللحون وآلات الحروب كالمجانيق والعرّادات والدبابات وآلات النفاطين وغير ما يطول ذكره.

ولهذا من الشأن قالت أم الإسكندر في دعائها له: رزقك الله حظاً يخدمك له ذوو العقول، ولا رزقك عقلاً تخدم ذوي الحظوظ.

ولما جاءت دولة المغرب بملوك الإسلام، كانوا أسباب الكتابة الفائقة والبلاغة الرائقة والأشعار السائرة والكتب الفاخرة النادرة، فلولاهم -- والرؤساء المتصلون بهم والمتصرفون على أعمالهم -- لماتت خواطر الكتّاب والشعراء وصدئت طباع العلماء والحكماء وانعقدت ألسن الخطباء والفصحاء؛ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومن السعادة قُرب شخص الشاهد.

فصل

فى فضل السلطان والملوك،

عن النبيّ ﷺ والسلف:

قال ﷺ:

"السلطان ظلّ الله فى أرضه، فمن أطاعه فقد أطاعنى، ومن عصاه فقد عصانى".

وقال عليه السلام:

"السلطان لا تردّ له دعوة".

"الإمام العادل يظلّه الله بظلّه، يوم لا ظل إلاّ ظله".

وافتخر – عليه السلام – بأنوشروان العادل فقال:

"ولدت فى زمن الملك العادل".

وكان عثمان بن عفان يقول:

"ما يزع الله بالسلطان أكثر مما يزع بالقرآن".

وقال حذيفة بن اليمان:

"ما سعى قوم ليذلوا سلطان الله، إلاّ أذلّهم الله فى الدنيا، مع مالهم فى الآخرة من الخزى".

وكان عبد الله بن مسعود يقول:

"لا بد للناس من وَزَعَة".

وقال بعضهم:

من سبّ سلطاناً كساه الله يوم القيامة حلّة من نار، إنما عليكم ما حملتم وعليهم ما حملوا، فعليهم العدل، وعليكم السّمع والطاعة.

وقال رجل للحسن البصرى: يا أبا سعيد، ما تقول فى السلطان؟

فقال:

ما عسيت أن أقول فى قوم يلون من أمورنا بخمسة: الجمعة، والجماعة، والفىء والثغور والحدود، وما يستقيم الدين إلاّ بهم وإن جاروا وظلموا، ولما يصلح الله بهم أكثر مما يفسد.

وكان دانيال النبى – عليه السلام – يمشى تحت ركاب الملك أربعة أميال، فقيل له: أتمشى تحت ركابه وأنت نبى؟ فقال: "إنى أفعل ذلك رجاء أن أكلّمه بكلام يدفع الله تعالى به عن الناس وينفعهم".

وكان الفضيل بن عياض يقول: لو كانت لى دعوة مستجابة لصيرتها للسلطان. قيل: ولِمَ تقدّمه على نفسك؟ قال: إن

دعوتي لنفسي لا تنفع غيري، وإذا كانت له، انتعشت البلاد بعدله وإصلاحه.

فصل
في طاعة السلطان

في الخبر: "من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة، مات ميتة جاهلية".

وقرأت في أخبار أنوشروان العادل أنه نظر إلى بزرجمهر وهو يوصي أحد حاشيته، فقال له: بم أوصيته؟ قال:

قلت له أطع ولي نعمتك فيما أمرك به ونهاك عنه كطاعة من أنشأك ورزقك؛ فإن طاعة من ملكه الله تعالى على خلقه مقرونة بطاعته وطاعة الله توجب الرحمة، وطاعة الملك توجب الإفادة.

فقال أنوشروان: لا يزال هذا الملك محروساً ما دام فيه مثلك.

وكان أبو بكر بن عياش يقول:

لم تتقرب العامة إلى الملوك بمثل الطاعة، ولا العبيد بمثل الخدمة، ولا البطانة بمثل حسن الاستماع.

وما أحسن وأوجز قول أبرويز:

أطع من فوقك، يطعك من دونك.

وقلت في كتاب "المبهج":

من أطاع السلطان فقد أطاع الرحمن، ومن عصى السلطان، فقد أطاع الشيطان.

وفيه:

إذا مددت يدك بالمبايعة فاعقد عقيدتك بالمتابعة.

فصل

لطائف وطرائف من الآداب في أجلّاء الملوك

بينا يزيد بن شجرة يساير معاوية، ومعاوية يحدّثه إذ أصك وجه يزيد حجر عاثر فأدماه، وجعل الدمّ يسيل على ثوبه، وهو لا يمسحه فقال له معاوية:

لله أبوك! أما ترى ما نزل بك؟ فقال: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذا دم وجهك يسيل على ثوبك، فقال:

أَعْتَقْتُ مَنْ أَمْلِكُ إن لم يكن السرور بإقبالك عليّ، والشرف بمحادثتك، ألهياني عمّا مسّني حتّى نبهتني عليه، فأعجب به معاوية وزاد في عطائه.

ويحكي مثل ذلك عن بكر الهذلي أنه كانوا يوماً عند أبي العباس السفاح، وأبو العباس يحدّثه، فعصفت الريح، فأذرت طشتاً من سطح إلى صحن مجلس أبي العباس السفاح، فارتاع من حضر، وانزعجوا لذلك، ولم يتحرك الهذلي، ولم تزل عينه مطابقة لعين أبي العباس فقال له:

ما أعجب شأنك يا هذلى! لم يرعك ما راعنا!

فقال:

يا أمير المؤمنين إنك خصصتنى بكرامتك فى إقبالك علىّ حتى مال إليها قلبى واشتغل بها فكرى، فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ما حسست بها.

فقال أبو العباس:

لئن عشت لأعرفنّ حقّك، ولأرفعَن قدرك.

ومن أخبار الصغانى المشهورة أنه كان يوماً بين يدى السعيد نصر ابن أحمد وهو يحادثه، فضربت فخذ أبى على عقرب، وقد كانت دبّت إلى سراويله، وما زالت تعيد الضربات حتى استفرغت سمّها، وأبو على لا يبالى بها، ولا ينزعج لها، فلما عاد إلى منزله ونزع ثوبه عُدّت الضربات فبلغت سبع عشرة، وبلغ السعيد الخبر فتوجع لما أصابه، ثم قال له بعد ذلك:

يا أبا علىّ عزّ ما دهاك لِمَ لم تقم لتزيل عن نفسك تلك البلية؟

فقال:

إذا لم أصبر فى مجلس الملك على أذى عقرب، فكيف صبرى إذ أعنت عنه على نيران الحروب وصواعق السيوف؟

وسمعت أبا نصر سهل بن المرزُبان يقول:

قرأت فى أخبار الوزراء لابن عبدوس أن المأمون خاطب يومًا

بعض حاشيته في شيء، فاحتجوا فيه وزادوا في الصوت، فلما خرجوا أمر بهم الفضل بن سهل فقُوِّمُوا بالضرب، فسأله المأمون عن ذنبهم فقال:

إنهم لم يتأدبوا بأدب الله تعالى؛ فإنه يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ (الحجرات: ٢) وقد رفع هؤلاء أصواتهم فوق صوتك.

وكان أنوشروان يقول:

إذا رفعت الأصوات فوق صوت الملك، فقد خُلع، وإذا قال في شيء لا فقيل له نعم أو قال نعم فقيل له لا فقد قُتل.

ومثل ذلك ما يروى أن فتى من الهاشميين دخل إلى المنصور وهو يتغدّى، فدعاه إلى غدائه فأبى، فلمّا خرج عدل به الربيع إلى بعض الممرات وأمر بضربه مائة عصا، وحمل الفتى إلى منزله مثخناً. فلما كان من الغد اجتمع أهله إلى المنصور يشكون الربيع، ويخبرون المنصور بما أقدم عليه من ضرب فتاهم، فقال المنصور: ما كان الربيع ليفعل شيئاً غير واجب، فدعاه به، وقال: يا ربيع لِمَ ضربت ابن عمي ولم آمرك بذلك؟

فقال: يا أمير المؤمنين لأنك دعوته إلى مائدتك، فامتنع من الإجابة،

ولم يعلم أن موائد الملوك تحضر تشرّفاً، لا تشبعاً، فأحببت أن أؤدبه لئلا يعود لمثلها.

وسمعت أبا جعفر محمد بن موسى العلوى الموسوى الطوسى يقول: إن رسم النثارات للملوك وغيرهم من الكبراء والرؤساء مأخوذ من أدب الله تعالى فى شأن رسوله - عليه السلام - حيث قال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ ﴾ (المجادلة:١٢) فكأن اليوم من سعى إلى الملك أو الرئيس بوسيلة فيقدم عليه ويقدم نثاراً بين يديه إنما يصدق بذلك عنه شكراً لله على ما يسّر له من لقائه سالماً فى نفسه وحاله ويسأله أن يرى فيه رأيه من التصدق أو غير ذلك، ولو تولّى إعطاءه الفقر لكان الشك قد يقع فى ذلك، والقلب يترجح بين التصديق والتكذيب.

وفى كتاب الوزراء لابن عبدوس أن محمد بن عبد الملك وزير المعتصم والواثق قرأ يوماً كتاباً على الواثق ليشهد فيه على نفسه، فلما بلغ الموضع الذى فيه فى صحته من عقله وبدنه وجواز أمره له وعليه قال أبو الوليد بن أحمد بن أبى داود: أيقال للخليفة مثل هذا؟ فقال له محمد: وما أنكرت من هذا؟ وهل يكتب فى مثل هذه الكتب إلاّ هكذا؟

فقال أبو الوليد: ينبغى أن يكون بين الخليفة وبين العامة فرق فى كل شيء! فقال له الواثق: وكيف يكتب؟ فقال يكتب: فى صحة من

جسمه، وعلو من رأيه وتوفيق من ربه، فخجل محمد، وأمر الواثق لأبي الوليد بمائة ألف دينار.

وقد حكى عن عبيد الله بن سليمان في كتاب كتب على المعتضد أنه أنكر مثل ذلك، وجعل مكانه في صحة من جسمه وأصالة من رأيه.

وكان محمد بن عبد الملك إذا احتاج خاتم الخلافة؛ ليختم به الكتب وغيرها دعا به، فإذا وقعت عينه عليه، وهو في درج ذهب مهيئ له، مغشي بحرير، قام إليه واستقبله خطوات وأخذه من درجه فقبّله ثمّ ختم به ما يريد، وردّه إلى مكانه وسلمه إلى خازنه، وشيّعه خطوات إلى أن يغيب عن عينيه إجلالاً وإعظاماً لخاتم الخلافة.

ويروى عن عثمان بن عفان أنه كان يقول: ما مسست فرجي بيميني منذ بايعت به النبي ﷺ.

وسمعت جدّي أبا علي الثعلبي يقول: سمعت نصر بن طزّ الشرابي يقول: ما مسست دسماً منذ ولاّني أمير المؤمنين بيت شرابه، واستخلصني لنفسه، واستخصني لسقيه، حتّى انتقل إلى جوار ربه. فقلت: وكيف كنت تتناول المرق واللحوم؟

قال: بالملاعق والبارجيات وربما كنت ألقم، إذا لم تحضر ملعقة.

وسمعت أبا نصر بن أبي زيد يقول: كان الرسم على موائد الملوك السامانية، إذا قدّم الأرز باللبن أن يتناول كل واحد ممن عليها ملعقة

ذهب، فجمعت يوماً مائدة الأمير السعيد – أو قال مائدة الأمير الحميد – نفراً من ملوك الأطراف وفيهم أبو سعيد أحمد بن محمد بن عراق، فلما قدّم الأرز باللبن أعطوا ملاعق الذهب على الرسم. فأخذوها وجعلوا يستعملونها سوى أبى سعيد، فإنه أخذها ووضعها بين يديه، فلما قاموا أمر الملك بأن يسأل عن السبب فى تركه استعمالها كما استعملها نظراؤه؟ فقال: كرهت أن أدخل الملعقة فى فمى ثمّ أُدخلها فى القصعة على مائدة الملك، وكان ذلك مما استحسن من أدبه، ورفع رسم الملاعق على الموائد بسببه.

فى صُدور من الأمثال والتشبيهات الملوكيَّة والسُلطانية

فصل

فى أمثال جارية على ألسنة الخاصة والعامة فى الملوك والسطان

منها قولهم: جاور مَلِكاً أو بحراً، وذلك لكثرة منافعهما ومصالحهما ومرافقهما للناس؛ فالبحر على ما فيه من الخطر يغنى ويغنى راكبيه ومجاوريه، وكذلك الملك بحسن آثاره على رعاياه وأصحابه.

وكنت أنشدت للمَطَرِّى هذين البيتين:

مــثل ســائر مــن الأمثــال ... بــــالآملين والآمــــال
قيل: جـاور بحـراً وإلاّ فجـاور ... ملكـاً باسـطاً يـد الأفـضال

فأجزتهما بهذا البيت:

وجمعــناهما بخــوارزم شــاه ... الملـك الـسيِّد الـرفيع المعـالى

ومنها قولهم: الملك عقيم، أي لا أرحام بين الملوك وبين أحد؛ لأنهم يجرون على حكم السياسة المرّة ويبلغون كل مبلغ من الاحتياط على الملك والمملكة، ولا يقارون أحداً يخافونه على الملك الذي هو أجل الرتب، وأعلى الأحوال - ألذّ الأشياء، ويصطلون كائناً من كان من أقربائهم وإخوانهم وأبنائهم، ويقتلون أقرب الناس منهم نسباً، إذا أحسّوا منهم قدحاً في سلطانهم.

وكثيراً ما يقتل ابن الملك أباه طمعًا في مكانه ووراثة سلطانه. ويقتل الملك ابنه إذا رأى منه خلافاً مخافة إياه على نفسه وملكه.

ومنها قولهم: من ملك استأثر. أي إن الملك يريد كل حسن، وكل علق نفيس لنفسه، فيستأثر به على رعاياه وأصحابه.

وكان المأمون يقول: إن فينا – معشر الملوك – محكاً وحسداً واستئثاراً.

وسمعت الحسن بن عبد الحميد يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبا على الصغاني يقول:

من والى الملوك أخذوا ماله، ومن عاداهم أخذوا رأسه.

ومنها قولهم: الناس على دين الملك، أي يتدينون بمذهبه، ويصدرون عن رأيه، ويحذون على تمثيله.

ومنها قولهم: للقلوب بدَوَات، وأسرع الأشياء تقلباً قلب الملوك.

إذا تغيّر السلطان، تغيّر الزمان.

عَفْو المَلك أبقى للمُلْك.

سكْرُ السلطان أشدُّ من سكر الشراب.

شرّ السلطان من خافه البرىء.

المُلك يَبْقى على الكفر، ولا يبقى على الظُّلْم.

الملوك يؤدِّبون بالهجران، ولا يعاقبون بالحرمان.

إذا قال الملك لعماله هاتوا، فقد قال لهم خذوا.

عدل السلطان أنفع من خِصب الزمان.

من أكل من مال السلطان زبيبةً أدّاها تمرةً.

من تحسّى مرقة السلطان احترقت شفتاه، ولو بعد حين.

المُلك بالدِّين يبقى، والدِّين بالمُلك يقوى.

ومن كتاب المبهج لمؤلف هذا الكتاب:

الأوطان حيث يعدل السلطان.

ريح السلطان على قوم: نسيم، وعلى قوم هموم وشؤم.

ما للملوك والمطامع الدنيّة فى المطاعم الرديّة.

الملك خليفة الله فى أرضه، ولن يستقيم أمر خلافته مع مخالفته.

فصل

فيما يجرى مجرى الأمثال من الحكم والآداب الملوكية

قال بزرجمهر: من جالس المُلوك بغير أدب فقد خاطر بنفسه.

وكان ابن المقفع يقول: أحقّ من لا يستخف بحقوقهم: الملوك والعلماء والإخوان؛ فإن من استخف بالملوك ذهبت دنياه.

ومن استخف بالعلماء ذهبت آخرته.

ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته.

وكان يقال: أربعة لا يستقل قليلها:

السيل والنار والسلطان والعداوة والدين.

وسمعت أبا محمد عبد الله بن إسماعيل الميكالى يقول:

كتب بعض البلغاء إلى بعض الرؤساء فى شىء شجر بينهما، ليس يجوز لأحد على أحد حكم إلاّ حكم الخالق على المخلوق، وحكم السلطان على الرعية، وحكم المالك على المملوك، ولست [أنتَ] ولا أنا منهم.

ومن فصول ابن المعتزّ: إذا زادك الملك تأنيساً فزِده إجلالاً.

وقال غيره: إذا اتخذك السلطان أخاً، فاتخذه ربّاً.

وسمعت أبا جعفر محمد بن موسى الموسوى يقول:

كان على - رضي الله عنه - يقول: قبلة الوالدين عبادة وقبلة الولد رحمة، وقبلة المرأة شهوة، وقبلة الأخ مبرة، فزاد فيه الحسن البصرى: وقبلة الملك العادل طاعة.

وكان عبد الله بن طاهر يقول: لا ينبغي للملك أن يظلم وبه يدفع الظلم، ولا أن يعجل، ومنه يلتمس الأناة، ولا أن يبخل ومنه يتوقع الجود.

وكان سليمان بن وهب يقول: لا يجتمع عيران فى عانة، ولا أسدان فى غابة، ولا سيفان فى غمد، ولا فحلان فى شول، ولا أميران فى جيش. فبلغ ذلك عضد الدولة فقال: ولا ملكان فى إقليم.

وكان الصاحب بن عباد يقول: ينبغي للسلطان أن ينقش قول أردشير فى فص صدره:

لا سلطان إلاّ برجال، ولا رجال إلاّ بمال، ولا مال إلاّ بعمارة، ولا عمارة إلاّ بعدل وحسن سياسة.

وكان يقال: السلطان الضعيف شؤم، وسلطان تخافه الرعية خير لها من سلطان يخافها.

وكان يقال أسد حطُوم خير من ملك غَشُوم، وملك غَشوم خير من فتنة تدوم، وسلطان عادل خير من مطر وابل.

وقرأت للأمير أبى الحسن بن محمد بن إبراهيم بن سيمجور كتاباً فى السياسة فأعجبنى منه فصل مرّبى معناه فى بعض كتب العربية وهو: كان الناس أحقّاء بالكَرَم، وأقلُّهم فى تركه عُذراً: الملوك لقدرتهم عليه. وكان الصاحب أبو القاسم يقول:

– تهيُّب السلطان فرض وكيد، وحتم على من ألقى السمع وهو شهيد.

– مرضاة السلطان لا تغلو بشىء من الأثمان.

وسمعت أبا نصر بن أبى زيد يقول:

من خدم السلطان فهو خادم من جهة، وملك من أُخرى، ومن خدم السوقة فهو خادم من الجهات كلها.

وكان يقال من خدم السلطان خَدَمه الإخوان.

وكان أبو الفتح البستى يقول:

أحق الناس من كان على السلطان مُدلاً، وللإخوان مذلاً.

فصل

فى تشبيه السلطان بالبحر والنار

أنشدنى عون بن محمد التيمى الهمذانى قال: أنشدنى الصاحب لنفسه:

إذا أدنـــاك ســـلطانٌ فــزدْه من التّعظيم واحـذرهُ وراقبْ

فما السلطانُ إلاّ البحر عظماً وقربُ البحر محذورُ العواقبْ

ومن فصول ابن المعتز:

- إن كان البحر كثير الماء؛ فإنه بعيد المهوى.

في أخلاق الملوك وعاداتهم
ورسومهم المحمودة والمذمومة

فصل

في فضل العدل الذى هو أفضل أخلاق الملوك

بالعدل استقامت السموات والأرض، وهو عند كافة أهل الملل والنحل وأصحاب الدول من العرب والعجم، قوام الدّين، وعمدة الملك، وأس السياسة، بل هو السياسة الكبرى، والفضيلة العظمى، ومن يحصى ما للملك العادل من المحاسن. وما للخلق فيه من المرافق والمنافع ومن يشك فى أنه إذا آثر العدل، واستمر عليه، واشتهر به، وأعطاه حقوقه، ووفاه شروطه، أجلّه من فوقه من الملوك، وعظّمه أكفاؤه، وهابه أعداؤه، وازداد طاعة له أولياؤه، وأحبّه من لم يكن من رعيته؟ فكيف رعيته، ووالاه من لم يره، وشايعه من سمع خبره، وفاز بنعيم العاجلة، وثواب الآجلة. وإذا مال عن العدل، واتسم بسمة الجور، جرت أحواله كلها على الضد مما تقدم ذكره وساءت بسياسته. والشأن فى أن العدل أكثر استدراراً للأموال من الجور الذى يؤدى إلى

عمقها، ويسدّ أبواب ارتفاعها. وما أحسن ما قال يحيى بن خالد: الخراج عمود الملك وما استغزر بمثل العدل، ولا استندر بمثل الجور.

فصول قصار من كتاب المبهج صنعه مؤلف هذا الكتاب في ذكر العدل وعوده على من يتحلى به من الملوك بصلاح الدارين:

- إذا عدل السلطان فقد اعتدل الجانف، وأمن الخائف واقتصر الخايف.

- حق الملك العادل على رعيته أن يفتدوه بسنا أبصارهم وسنى أعمارهم.

- عدل الملك لدينه أحوط، ولدنياه أضبط، ولأوليائه أثبت، ولأعدائه أكبت.

- أحر بالملك العادل أن يستقرّ سريرُه في سرُّة الأرض.

- إذا ملك العادل، زال الروع وأفرخ، وإذا ملك الظالم عشش الشر وفرّخ.

- الملك العادل مكنوف بعون الله، محروس بعين الله.

- كأنك بالملك العادل وقد جرى القضاء على إيثاره، وأخذ له حسن إيثار بثاره.

- إذا عدل الملك فقد سكن حلة الأمن، ولبس حلة اليُمن.

- إذا عقد الملك العادل بالعدل عقيدته، وطوى على الإحسان طويته، فليبشر باجذ الأصعد الأسعد.

- إذا امتثل الملك أمر الله المنان بالعدل والإحسان، دانت له أداني البلاد وأقاصيها وافتتحت باسمه قلاعها وصَياصيها.

فصل

من كتاب المبهج أيضاً فى ذكر الظلم وذمه وسوء عاقبته

أخلق بالملك الظلوم، أن يصير عِظة الرائين وعبرة الراوين.

- لا كان جناح الظالم بالمحن من وجوه المنح والنوائب من أماكن المواهب وبالفتوق من وجوه الفتوح.

- كأنك بدار الظالم، وقد دارت عليها دائرة السوء: أخلق بالظالم أن ينهار فى جرف هار.

- الظالم مخذول وإن حشر وحشد، ووفر العدد، واستجلب المدد وكثر العدد، والعادل منصور وإن تفرد وتجرد.

- من نتائج الظلم قصر المدة، وانحسام المادة، وانقطاع المدد.

- أخلق بالظالم أن يكون مقتسراً وماله مقتسماً.

- حبل الظالم مبتوك وستره مهتوك.

- ظل المال المستثمر من ظلم الرجال، كسحاب تمزقه أيدى الشمال وتفرقه ذات اليمين وذات الشمال.

- مال الظلم قليل المعونة والمغونة، قبيح الذكر والأحدوثة.

- الظلم لا يقال صريعه، ولا يساغ ضريعه.

- كأنك بالظلمة، وقد كبّوا على مناخرهم وتحكّمت سيوف الحق في متاجرهم.

فصل

في المشورة وحسن أثرها، وطيب ثمرها

من أخلاق الملوك الأفاضل المشورة التي هي من أركان السياسة وفرائض المملكة، وكان عمر رضي الله عنه يقول رأي الواحد كالخيط الواحد، كالخيط الفرد، والرأيان كالخيط السّحيل والثلاثة كالحبل.

وكان الحسن البصري يقول: إن الله تعالى لم يأمر نبيه – عليه السلام – بمشاورة أصحابه لحاجة منه إلى آرائهم، وإنما أراد أن يعلمنا ما في المشورة من الفضل؛ حيث قال تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال حكاية عن الملكة بلقيس : ﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل:٣٢].

وقال الأصمعي قلت لبشّار بن بُرد: يا أبا معاذ، والله ما سمعتُ أحسن من قولك في المشورة:

إذا بلغ الرأيُ المشورةَ فاستعنْ   برأى نصيح أو نصاحة حازمِ
ولا تجعل الشُّورى عليك غضاضةً   فإن الخوافى قوةٌ للقوادمِ

فقال لى: أوما علمت أن المشار بين إحدى الحسنتين؛ بين صواب يفوز بثمرته، أو خطأ يشاركه فى مكروهه.

فقلت له: أنتَ فى هذا الكلام أشعر منك فى شعرك!

وأحسن ما سمعته فى المشورة قول أبى عثمان الجاحظ:

الشورى لقاح العقل، ورائد الصواب، والمستشير على طرف النجاح.

- استشارة المرء برأى أخيه من عزم الأمور وحزم التدبير.

- وقد أمر الله بالمشورة أكرم الخلق فقال لرسوله الكريم فى كتابه الحكيم: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران ١٥٩].

ومن يتيمة ابن المقفع فى نصيحة الملك:

لا يقعن فى روعك أنك إن استشرت ظهرت منك للناس الحاجة إلى رأى غيرك؛ فإن أحسن الذكر عند الناس أن يقال إن الملك لا ينفرد برأيه.

وقال مؤلف الكتاب:

وأكثر الملوك يرون المشاورة فرضاً واجباً، وحقاً لازماً للملك الذى

يستخدم به العقول، ومن أجله يرتبط الحكماء ونصحاء الوزراء؛ إذ هو أعظم الأشياء، وأعلى الأخطار، وأجل المراتب، وأولى الأحوال بأن يجعل لها الآراء الصاينة، ويستعان فيها بالأذهان الثاقبة، وله شوائب، وعوارض، ونوائب، لا تداوى إلا بثمرات الألباب، ونتائج الأفكار.

وليس الملك بمشاورة حذاق الأطباء في حفظ صحته ومرمة علته، أجدر منه بمشاورة ثقات الحكماء في تحصين ملكه ومداواة ما يعرض من رأيه، ومما يعدّ في محاسن الملوك الساسانية، ارتباطهم بمشايخ يجمع كل منهم إلى الحنكة: التحصيل وإلى التجربة: الرأى الأصيل وإجراؤهم عليهم الأرزاق السنية ومواصلتهم لهم بالصلات الجزيلة لا لشيء غير الاستضاءة بعقولهم في ظلم الأمور والرجوع إليهم في مشكلات التدابير، فإذا استشاروهم في الخطوب العارضة، والأعداء الناجمة خمّروا آراءهم، وأجالوها، وأجادوا أفكارهم، وأطالوها حتى يحصلوا على لب الصواب ومحض الرأى، ولم تزل دولتهم غضّة العود معتدلة العمود، ما دامت تلك العادة من سيرهم، ورسومهم المذكورة فحين أخلّوا بها واستبد وزراؤهم بالآراء الفاسدة كما قال أبو محمد السُلمى:

قد كان آراؤكم فيما مضى كرة ... كأنما صنعتها كف خراط

فالآن سبعون رأياً من وزيركم ... في السوق لا تُشترى منكم بقيراط

دبّ الفساد في ملكهم، وسعى وشب ونما ولحقه الالتياث،

وحدثت منه الأحداث حتى مرضت دولتهم، فأعضل داؤها وأعوز شفاؤها، وإذا أراد الله رحلة نعمة عن دار قوم أخطأوا التدبير.

ومما عيب به عبد الله بن طاهر مع وفور فضله، وكمال عقله، وعدله، وحسن سياسته، وجميل سيرته، أنه كان يترفع عن المشاورة يقول: لئن أخطأت ألف خطأ أحب إليّ من أن أستشير؛ فاخطأ بعين النقص والحاجة.

وما أبعد رأى عبد الملك بن صالح الهاشمى من الصواب، وأقرب من خرق الإجماع فى قوله:

"ما استشرت أحداً قط إلا تكبر علىّ، وتصاغرت له، ودخلته العزّة، ودخلتنى الذلة، فإياك والمشاورة، وإن ضاقت بك المذاهب، واستبهمت عليك المسالك وأدّاك الاستبداد إلى الخطأ الفادح"، لا جرم أنه لاستبداده برأيه، وترك مشاورة ناصحه، أقدم على ما أوحش الرشيد، فحبسه حتى أطلقه الأمين بعد موته.

فصل

فى العفو والأخذ

العفو من أفضل الأخلاق للملوك الأفاضل، وأعودها عليهم فى العاجل والآجل؛ لأمر ما قيل "عفو الملك أبقى للملك" وذلك أن الملك إذا تكرم بالعفو عن المذنبين من أصحابه وقواده ممن لم يقدحوا

فى ملكه، ولم يتعرضوا لحرمه، ولم يقدموا على إفشاء سرّه اشتدّت محبتهم له وظهرت موالاتهم إياه، وازدادت شفقتهم عليه، فبذلوا الجهد فى مناصحته والذبّ عن سلطانه، وامتثال أوامره، وإذا لم يأخذ نفسه بالعفو وأخذته العزة بالإثم وأسرف فى العقوبة والقتل فسدت نياتهم، وساءت آراؤهم فسعوا فى هدم ملكه، والإتيان على نفسه، وما أكثر أساطير الأولين فى ذلك.

وقليل العيان أصدق عندى من كثير يقص فى الأنباء: هذا قابوس ابن شمكير شمس المعالى بالأمس جعل السياسة كلها فى إراقة الدماء وإخافة الأولياء وكان لا يعرف العفو، ولا يرى التجاوز، ويديم القتل على التهمة، حتى خافه كل برىء واستحال عدو كل ولى، وتساوت أقدام قواده وحاشيته وبطانته فى الاستيحاش منه، والانطواء على كل مكروه، فصاروا يداً واحدة فى خلعه وإزالة أمره، ومع الذى سقت الكلام إليه، فالقتل فى أماكنه كالعفو فى مواطنه والقتل أنفى للقتل كما قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وقد أحسن أبو الطيب المتنبى فى قوله:

لا يسلم الشَّرفُ الرفيعُ من الأذى ... حتّى يراقَ على جَوانبه الدَّمُ

ومن لم ينفعه الصفح الجميل، نفعه السَّيف الصقيل.

وقال بعضهم: إذا الخير لم ينفعك، فالشر نافع، والسّر في إيقاع الملك كلاً من الأمرين موقعه وإصابته موضعه.

وممّا ينبغي للملك أن لا يعرف بلين الجانب وسلامة الصّدر وخفة السّطو ودوام العفو فتقل الهيبة له، وتكثر الجرأة عليه، كما لا ينبغي أن يعرف بغلظ القلب، والبسط في البطش، والإسراف في القتل، فتنبو القلوب عنه وتسوء الظنون به، وتدبّ الغوائل إليه.

ومن الملوك من في طبعه العفو عن المذنبين كالمأمون، فإنه كان يقول: أنا والله ألذ العفو؛ حتى أخاف ألا أوجر عليه، ولو علم الناس مقدار محبتي للعفو لتقربوا إليّ بالذنوب.

ومنهم من لا يعرف من العقاب إلا ضرب الرقاب لما في طبعه من محبة سفك الدماء، وقل من كان كذلك إلاّ كان القتل عاقبة أمره كأحمد بن إسماعيل الساماني ومرداويج بن زياد الجبلي وغيرهما من أجلة الملوك.

فينبغي للملك إذا عثر من أصحابه على جريمة، أن يتثبت في أمره، ويأمر بحبسه إلى أن يسكن عنه الغضب ساكنه، فينسب ما يكون منه حينئذ إلى الرأي الصائب لا إلى غضبة أمضاها وحاجة من حاجات الانتقام في نفسه قضاها.

هذا ومن أسرار الملك، أن الملك لا يستحكم هيبته، ولا تكمل سياسته، ولا يفخم سلطانه، ما لم يفتك برجل كبير من قواده، ورأس

عظيم من رؤساء عساكره، إذا شمّ منه رائحة العصيان، وشام فيه بارقة الخلاف، كما فعل عبد الملك بن مروان بعمرو بن سعيد، والمنصور بأبى مسلم، وعبد الملك بن نوح، بالفتكين، والسلطان المعظم ناصر دين الله وحافظ عبد الله بعلى القريب وغيرهم من الملوك، بغيرهم من الجبابرة؛ فإنه إذا ذهب مع الحزم فى ذلك، وأمضاه بعد التأنى والروية، وأخذ الأهبة، وبعد الاستخارة والاستشارة، اتعظ زيد بعمرو، وبعدت مطارح الهيبة والحشمة، واستقامت قناة المملكة.

فصل

فى مدح الجود وذم التبذير

معلوم أن الجود من أفضل الأخلاق وأعظمها وأشرفها لأنه من صفات الله سبحانه، وأحق الناس به الملوك؛ لقدرتهم عليه، وتوغلهم فى ذرى المعالى، ووقوف جلائل أمورهم، ومعاظم شئونهم عليه.

وكان يقال: إذا جمع الملك العادل، العدل الشامل، والمال الوافر، والجود الغامر، والوزير الناصح عسر على الملوك إدراك شأوه.

ومما أستحسن غاية الاستحسان فى السياسات قول بعض الحكماء: ماكان فى الملك، فلا ينبغى أن يكون فيه خمس خصال: البخل والكذب والحدّة والحسد والجبن، فإنه إذا كان بخيلاً لم يحبه ولم يناصحه أحد، ولا يصلح الملك إلاّ بالمحبة والمناصحة، وإذا كان كذوباً لم يرج وعده، ولم يخش وعيده.

ولا يطرد أمر الملك إلاّ بالرجاء والخوف، وإذا كان حدّياً مع القدرة هلكت الرعية، وإذا كان حسوداً لم يشرف أحداً، ولم يرفع منه، ولا يصلح الناس إلا على أشرافهم، وإذا كان جباناً اجترأ عليه عدوه، وضاعت ثغوره.

وذاكرتُ يوماً بنيسابور أبا الفتح علي بن محمد البستي الكاتب بقولي في كتاب المبهج: بخيل الملوك دخيل فيهم، فأعجب به، ثم أنشدني لنفسه:

إذا ملـــك لم يكـــن ذا هِـبة　　　فدعـــه، فدولـــته ذاهـــبة

وسمعته يقول: ترجمت يوماً للأمير ناصر الدين أبي منصور سبكتكين قول بعض الحكماء: ينبغي للملك أن يكون سخياً لا يبلغ التبذير، وحافظاً لا يبلغ البخل، وشجاعاً لا يبلغ التهور، ومحترساً لا يبلغ الجبن، وقائلاً لا يبلغ الهذر، وصموتاً لا يبلغ العي، وحليماً لا يبلغ العجز.

قال: فاستحسنه جداً، وكان كثيراً ما يستعيدنيه لإعجابه به، وإيثاره أن تبنى أموره عليه.

قال مؤلف الكتاب: كما أن الجود من أخلاق الملوك المحمودة: فالتبذير من عاداتهم المذمومة لأن المال للملوك فريضة وللرعية نافلة، وقوة الملك بالجند، وقوة الجند بالمال، ومن أعظم آفات الملك أن

يركب الهوى في الإطلاقات، والإنفاقات، وتوسعة الإقطاعات، وتحكيم السكن في تفخيم الصلات والسفر في إتلاف المال على البنيان، وبذل الرغائب في أثمان القيام، فيعذر عليه أن يدّخر ذخيرة لنوائبه، أو يستفضل شيئاً من ارتفاع مملكته، فلا تزول مؤونة تزيد، ومواده تنقص حتى ينهتك الستر، وتزول الحشمة، وتسقط الهيبة، ونعوذ بالله من الجور بعد الكور.

وفي يتيمة ابن المقفع: ليس إعطاؤك من هو أهل للعطاء، بأقرب إلى الرشد، ولا أعظم للأجر، من منعك مستحقاً للمنع.

وكان الرشيد يقول: لم أمدح بأحب إليّ من قول أبي العتاهية:

إنّ لله خازناً من بني العباس في الأرض موطناً للسماح

عارفاً للعطا والمنع يستوي فيهما في مواضع الإصلاح

قال بعض السلف: لو كان شيء يشبه الربوبية، لقلت: إطعام الناس، ومَا أقل من يوصف من الملوك بهذه المكرمة الشريفة، وما أكثر من يجود منهم بالصلات الجسام ويبخل بأدنى الطعام.

فمنهم محمد الأمين المخلوع وهو خليفة ابن خليفة ابن خليفة ابن خليفة، وكان يهب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ويبخل بالرغيف الواحد على ندمائه ويسقيهم على الريق طول أيامه.

ويحكى أن بعضهم ممن بلغ به الجود كل مبلغ، وشاع عليه أثر

للشرب في مجلسه من غير أكل، اشترى سرّاً من بعض الخدم بزماورد بمائة دينار وأكلها عند دخوله المتوضأ، فلما خرج وعاد إلى مكانه أنكر عليه المخلوع تماسكه، وقال: قد رجعت بغير اللون الذي ذهبت به، وما أشك في أنك أكلت شيئاً ثم أمر به فقيء.

ومنهم أبو دُلَف القاسم بن عيسى، فإنه أول من كان يهب ـ بعد الخلفاء ـ لشاعر من الشعراء مائة ألف درهم، وكان من الجود والكرم بحيث يضرب به المثل، وكان مع ذلك لا يمكنه أن يكتحل من يكسر رغيفاً له بين يديه، ويعرف هذا العيب الشنيع من نفسه وفي طبعه فيقول: دعوت الله ستين سنة أن يذهب عني البخل بالطعام فما استجاب دعوتي بعد، وأرجو أنه يفعل.

وفيه يقول الشاعر:

أبو دُلَفٍ يجود بألف ألفٍ ... ويبخلُ بالطَّفيف من الرغيف

أبو دُلَفٍ لمطبخه قُتارٌ ... ولكن دونه قرع السيوف

وقد وقع الاتفاق وتقرر الإجماع، وشاعت الأخبار، وشهدت الآثار، بأنه ليس اليوم في ملوك العصر أوسع رَحلاً وأخصب وجهاً وأدوم قرى وأظهر فيه مروءة، وأجمع بين الإنعام التام، والإطعام العام من مولانا الملك حرس الله دولته، وهذه إحدى فضائله المشهورة ومحاسنه الكثيرة، فأدام الله له جمال هذه الحال ما تأدت البكر إلى الآصال.

فصل

في كبر الهمّة

أولى الناس بكبر الهمة وارتفاعها الملوك، وما شيء أقعد بالملك من صغر همته، وقد تقدم من أقاويل الملوك الدالة على كبر هممهم، وارتفاع أخطارهم، ما فيه غنية عن الإعادة.

وأحسن ما سمعت في بعد الهمّة قول بعض السادة لابنه: يا بني لا تكونن لك همة دون الأمد الأقصى في طلب دين أو دنيا؛ فإن العاقل لا يرضى لنفسه إلا بإحدى منزلتين: إما أن يكون في أبعد الغايات من طلب الدنيا أو في الغاية القصوى من الترك لها.

وأحسن ما سمعت في المدح قول بعضهم:

له همم لا منتهى لكبارها ... وهمته الصغرى أجل من الدهر

له راحةٌ لو أن معشار جودها ... على البر صار البر أندى من البحر

وكانت العجم تقول في بعد الهمة وكبرها يكون النصب، فجاء أبو الطيب المتنبي فكسى هذا المعنى الشريف شعاراً أنيقاً من عبارته، فقال لسيف الدولة، وأحسن ما شاء وأجاد:

كلُّ يومٍ لك ارتحالٌ جديدٌ ... ومسيرٌ للمجد فيه مقامُ

وإذا كانت النفوسُ كباراً ... تعبت في مرادها الأجسامُ

وحدّث المبرّد قال: أمر المنتصر يوماً لرجل من المرابطين بخمسمائة درهم، فقال له أحمد بن الخصيب: لا ينبغي للملك أن يُجرى على لسانه وقلمه عدداً أقل من الألف.

ورفع إلى المأمون أن العباس ابنه قال لوكيله: رأيت في الرصافة بقلاً هشاً فخذ لنا منه بنصف درهم؛ فاسترجع المأمون وقال: إذ قد عرف أن للدرهم نصفاً فلن يفلح أبداً!

وشتّان ما بين العباس وأبيه المأمون: فقال المأمون أهدوا له ما يكون مائة ضعف لها ليعلم عز الإسلام ونعمة الله علينا، فامتثل أمره، فقال وقد أعدوها: ما أعزّ الأشياء عندهم؟ قالوا: المسك والسمور والفيروزج. قال: فكم في الهدية منها؟ قالوا: مائة رطل من المسك، ومائتان من جلود السمور، ومائتان من خواتم الفيروزج، فقال: بلغوا بكل منها ألفاً وضموها إلى سائر الأشياء ففعل.

فصل

في كتمان السّر

من أخلاق الملوك كتمان السر لما في ذلك من الحزم والاحتياط على الملك، والأصل فيه قول النبي ﷺ: "استعينوا على حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود".

وكان بعض ملوك فارس يقول لقواده ووزرائه: صونوا أسراركم؛ فإنه لا سرّ لكم إلا في ثلاثة مواضع: مكيدة تحاول أو منزلة تزاول أو سريرة مدخولة تكتم، ولا حاجة بأحدكم إلى ظهور شيء منها.

وأوصى ملك صاحب جيشه فقال: اعمل على أن كل من فى عسكرك عين عليك لعدوك.

وكان يقال من وهن الأمر إعلانه قبل إحكامه، ومن ضاع قلبه اتسع لسانه.

وكان بعض الملوك يقول: إذا تكلمت بالكلمة ملكتنى، وإذا لم أتكلم بها ملكتها.

وكان معاوية يقول أُعِنْتُ على على رضى الله عنه بخلالٍ منها أنه كان رجلاً ظهرةً علنة أى لا يكتم سرّه بل يظهره ويعلنه، وكنت كتوماً لأمرى.

وسمعت أبا الفتح البستى يقول: لم أر ملكاً أميناً أجمع لآلات الرئاسة من الأمير ناصر الدين أبى منصور سبكتكين رضى الله عنه، وكان من أغلب خصال الملوك عليه كتمان السر، وترك تأخير عمل اليوم إلى غد.

فصل

فى جمع الملك بين الخير والشر

قال الجاحظ عن أبى مالك: من كان خيره محضاً عدم الهيبة، ومن لم يعمل بإقامة جزاء الحسنة والسيئة، ولم يقتل فى موضع القتل ولم يعف فى موضع العفو، ولم يعاقب فى موضع العقوبة، خالف الرب فى تدبيره، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه، وقد قالوا: بعض القتل إحياء

للجميع، وبعض العفو إغراء، كما أن بعض المنع إعطاء، وينبغي أن يخلط الوعد بالوعيد والبشر بالعبوس، والإعطاء بالمنع، والحلم بالإيقاع؛ فإن الناس لا يصلحون إلاّ على الثواب والعقاب والإطماع والإخافة.

ـ من أخاف ولم يوقع وعرف بذلك كان كمن أطمع ولم يعطِ، ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده لكان الله تعالى أولى بذلك الحكم.

ـ وفى إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة فى جميع الأقطار وفى جميع الأعصار على استعمال المحبوب والمكروه دليل على أن الصواب فيه دون غيره.

ـ وإذا كان الناس إنما يصلحون على الشدّة واللين، وعلى العفو والانتقام، وعلى البذل والمنع، وعلى الخير والشر عاد ذلك الشرّ خيراً، وذلك المنع إعطاء، وذلك المكروه محبوباً.

فصل

فى الإذن والحجاب

عادات الملوك وآراؤهم مختلفة فيهما؛ فمنهم من يسهل الإذن ويديمه، ومنهم من يكثر الاحتجاب ويقل الإذن، ومنهم من يرى الطرفين مذمومين ويرى الواسطة أحمد؛ فهو أمثلهم طريقة وأسدهم رأياً وأحسنهم سياسة، وفى كثرة الإذن مصالح ولها معايب.

ـ فمن مصالحها سكون الرعية وتناصفها وحسن جرى الأعمال واستقامة العمال على الطريقة وكفّ الأقوياء على ظلم الضعفاء وهدوء الأطراف وزوال الأراجيف وابتهاج الأولياء وانزعاج الأعداء وقرب متناول الحاجات.

ـ ومن معايبها أن الملوك بشر لا يخلون من العلل والأمراض وحقها أن تستر عن الناس ولا يطلع عليها غير الخواص نظراء الملوك، وإبقاء عليهم، فإذا احتجبوا وأخلوا بعادة الإذن ظهر ما ينبغي أن يستر وساء أثره على المملكة وتطايرت الأخبار إلى الغد وبخلاف الواجب، وجال شيطان الأراجيف فى الرعية، وربما احتاج الملك أن ينهض بنفسه إلى بعض الجهات فى مهم من مهمات الملك يوجب الرأى إخفاءه عن الناس، فإذا كانت عادته جارية بطول الاحتجاب انكتم السرّ فى حركته، ولم ينكشف ما يجب الجدّ فى ستره.

ومنها أن كثرة ظهور الملك عليه مجلبة لابتذال العيون إياه، ومن حقه التصون عن ذلك وبناء أموره وأحواله كلها على ما يزيد فى هيبته، ويعوذ بعلو شأنه، وجلالة سلطانه، وفى وصية بعض الملوك لابنه: لا تمكن الناس من كثرة رؤيتهم لك، فإن أجرأ الناس على الأسد أكثرهم له رؤية.

وسمعت أبا جعفر محمد بن موسى الموسوى يقول:

خرج السديد منصور بن نوح يوماً من داره للضرب بالصوالجة فى الشهلة، وكان فى رسوم الملوك السامانية ضرب الدبادب، إذا ضربوا

بالصوالجة، فسمع أبو جعفر العتبي وهو فى ديوان الوزارة قرع الدبادب فى غير وقته، فسأل عن ذلك فقيل له إن الملك فى غلمانه وخواصه مشتغل بضرب الصوالجة فى السّهلة، والنظارة محدقة به من الجهات، فدعا بدابته ركبها إلى الموطن الذى فيه السّديد، فأخبره الحاجب بحضوره، فأنكره وأكبره وظنه لفتق حدث فى الملك إذا لم يكن عادة العتبي جارية بحضوره إياه فى مثل ذلك الوقت، وفى مثل ذلك المكان، فلما وصل إليه فترجل له قال السديد: سلامة أيها الشيخ، فقال: تكون السلامة والملك مبتذل لعيون العامة، وإنما هيبة الملك فى قلة رؤية الناس له وتعذر وصولهم إليه، ولا حكمة أعظم من احتجاب الله عن عيون خلقه، ولو كان عزّ اسمه ظاهراً للعيون لما عُبد، فتبسم السديد ضاحكاً من قوله، وقال: قد علمت أيها الشيخ أنه لابد لنا من تعاطى هذه الآلة لما فيها من الرياضة، فقال: لست أنهى الملك عنها ولكن أشير عليه بأن يمارسها فى ميدان أو مكان ولا يصل إليه العامة؛ فأما هذه السهلة فهى واسطة البلد وهى محفوفة بالأسواق والسوقة، وأنا أربأ بالملك عن عيون الأنذال والغاغة إلا فى الندرة. فقال: صدقت أيها الشيخ ورمى بالصولجان من يده وثنى عنانه إلى قصره، وما عاد بعدها للضرب بالصوالجة فى السهلة.

ثمّ عاد بنا الحديث إلى الإذن والحجاب، فمن حق الملك أن لا يأذن إذنًا كثيراً متوالياً؛ فكل كثير عدو للطبيعة، وقد أحسن ابن المعتز فى قوله:

كما يَخلقُ الثوبَ الجديدَ ابتذالُه   كذا تَخلق المرءَ العيونُ اللوامحُ

وأن لا يديم الاحتجاب الذى لا تحصى مضاره، ولا تعد بوائقه.

وكان خالد القسرى يقول لحاجبه: إذا أخذت مجلسى فلا تحجب عنى أحداً؛ فإن الوالى يحتجب لثلاث: إما عى يكره أن يطلع عليه. وإما ريبة يخاف انتشارها، وإما بخل يكره أن يسأل شيئاً.

وكانت العجم تقول: ما شىء بأضيع للمملكة من شدّة حجاب الملك، ولا شىء أهيب للجند والرعية، وأكف لهم، عن الظلم من سهولته.

ولم أسمع فى تحسين الحجاب أحسن من قول أبى تمام:

يأيهــا الملــكُ النائــى بــرؤيته   وجُــوده لمراعــى جُــوده كَــثَبُ

ليس الحجابُ بمقصٍ عنكَ لى أملاً   إنَّ الســماء تُرجّى حــين تحتجبُ

وقد أجاد ابن نباتة:

ولو كان الحجابُ بغير نفع   لما احتاجَ الفؤادُ إلى حجابِ

فصل

فى تعرف الأخبار وبث الجواسيس

من عُمد الملك وأركان السياسة ورسوم الملوك الحزمة: صرف العناية إلى أخبار ما قرب وبعد من المملكة وما يجاورها من ممالك

الملوك، وبلوغ كل مبلغ من الجدّ فى تعرفها، والإحاطة بها ونصب الأمناء، والثقات الكفاة لإدامة أنهائها على وجوهها، وتبليغ ما يدق ويجل منها وترتيب البرد والمجمزين وأصناف الفيوج لها وبث الجواسيس فى أرض الصديق والعدو، وأخذهم بركب الصعب والذلول وتجشم الحزون والسهول فى الوقوف على حقائق الأخبار وصور الأمور وأعمال الحيل لتحصينها والتلطف لإنهائها فى المشمعات وغيرها.

والأدب فى هذا مأخوذ من الله تعالى فى قوله: ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ (الزخرف: ٨٠) وقوله تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (ق: ١٨).

ولم تزل حزمة الملوك معتنين بهذا الشأن بالغين فيه أقصى الإمكان، وكذلك اتخذوا الحمام الهدى فجعلوها بريدًا ووقفوا بها على الخبر الحادث فى ماضى يومه، وبينهم وبين البلدة التى حدث فيها مسافة خمسة أيام وأكثر، وعلى هذا التقدير يجرى خبر الأبعد فالأبعد، والرسم فى اتخاذ الحمام الهدى باق إلى اليوم فى بلاد العراق وما يجاورها وربما بلغت قيمة الواحد منها مائتى دينار، فالملك الحازم من يبنى أموره على أن يكون ما يغيب عنه كما يشاهده معرفة وعياناً ووقوفاً عليه حتى يستوفى لديه أحوال القريب والبعيد، ولا يستعجم عليه أبناء العدو والصديق.

ويكون كأنما عناه أبو تمام بقوله:

أطلّ على كلا الآفاق طرّاً   كأنَّ الأرضَ في عَينيه دارُ

وأراده الآخر بوصفه:

أحاط علماً بكل خافية   كأنما الأرضُ في يديه كره

ولولا ارتفاع مقدار البريد ما سما جناح المسلمين ونطقت به الأخبار والأشعار.

وقيل لبعض بني أمية: ما الذي أذهب ملككم؟ فقال: تحاسد الأكفاء وانقطاع الأخبار.

وكان لعمرو بن الليث في التلطف للتعرف والتخصص بالتجسس طريقة عجيبة، فإنه كان له على كل قائد من قواده، وعامل من عماله ومذكور في رعيته رقيب في السرّ وعين في الستر ينهي إليه دقائق أخباره وخفايا أسراره، فكان عمرو يخبرهم بكل ما يفعلون ويقولون ويأكلون ويشربون وسائر ما يعملون فيجازي المحسن بإحسانه ويكافئ المسيء بإساءته.

والتعجب من ذلك يذهب بهم كل مذهب فيزدادون تحفظاً وتيقظاً بين السر والعلانية في احتشامه وقضاء حقوقه مناصحته.

وكان الأمير أبو الحسن بن سيمجور يأخذ برسمه ويزيد عليه في

تعرف الأخبار عامة وأخبار نيسابور خاصة، وكان له فى كل سوق من أسواقها ومحلة من محالها ومجلس من مجالسها وفى كل دار من دور مشايخها وأعيانها وقواده وأصحابه المقيمين بها - عيون فى السرّ حتّى من العجائز يؤدون إليه كل ما يرون ويسمعون، ويجعلونه من كل ما يجرى ويقع ويحدث على بصيرة شافية، فأما جواسيسه فى سائر البلاد فمتجاوزون حدّ الكثرة، وكان يقيم لهم ما يصلحهم ويعطى لهم الرغائب، ويقضى لهم الحاجات.

فصل

فى أبنية الملوك

من رسوم الملوك على وجه الزمان: بناء البلدان، وتفخيم البنيان، وتشييد الحصون المنيعة، والقصور الرفيعة، وإيثار حسن الآثار، كما قال بعضهم:

إنّ آثارنـــا تـــدل علينـــا فانظـــروا بعـــدنا إلى الآثـــار

وما أحسن قول على بن الجهم فى بعض أبنية المتوكل من قصيدة:

ومـــا زلـــتُ أسمـــعُ أنَّ الملـــو ك تُبنـــى علـــى قَـــدرِ أخطارِهـــا

وأعلـــمُ أنَّ عُقـــولَ الـــرجـــا ـــالِ تقـــضى علـــيها بآثارِهـــا

فلمّـــا رأيـــت بـــناءَ الإمـــام رأيـــتُ الخلافـــةَ فـــى دارِهـــا

صُحونٌ تُسافرُ فيها العُيونُ ... وتَحسرُ من بعد أقطارِها

وقبّةُ مُلكٍ كأنَّ النجو ... مَ تُصغي إليها بأسرارِها

وما أظرف قول الشعراء للصاحب:

ولي مسألةٌ بعدُ ... فعاجلني بأخبار

بنيتَ الدار في دنيا ... ك أم دنياك في الدار

وإنما أخذه من قول أبي العيناء حيث قال له المتوكل: كيف ترى دارنا هذه؟ فقال: يا أمير المؤمنين رأيتُ الناس يبنون دوراً في الدنيا، وبنيتَ أنت الدنيا في دارك. فينبغي للملك أن يضرب مع الملوك بسهم في الأبنية، ولا يركب الهوى المفرط، ولا يستحسن السّرف المجحف في الإنفاق عليها، فيحمل بذلك على ماله الذي هو قوام أمره، ونظام ملكه، وعدة جنده، وذخيرة يومه وغده، ومعلوم أن البنيان لذّة كلذة النساء والخمر، وبعضه يدعو بعضاً. فلا نهاية لما تستغرقه نفقات الأبنية الملوكية من الأموال الجمّة، بل يجب عليه ألا يصرف منها إلاّ فضول أمواله وأذناب ارتفاقاته، وأن يوسع ما يقدره، ويحكم ما يؤسسه، ويرفع ما يشيّده، ويعمل على التخليد، والتأبيد لا على التشقيق والتزويق.

ولا يضيّع الأموال كما يضيّعها المتوكل في أبنيته بسرّ من رأى، فإنه أنفق عليها ما لم ينفقه أحد من الملوك قبله، ولا بعده، والتذّ جدّتها، ولقب كلاً منها بالشاه، والعروس، والصَّبيح، والمليح، والغريب،

والبديع، والمختار، والجعفرى، واللؤلؤة، وغيرها مما لست آحاضر به، حتى انتهت النفقات إلى الثلاثمائة ألف ألف درهم، تفصيلها مثبت فى كتب الأخبار العباسية، فأجحفت كل الإجحاف ببيوت أموال المسلمين، وساءت آثارها على الخلافة، والمملكة، ثم لم تكتب من بعده إلاّ مديدة، حتى خرب أكثرها، واضمحل معظمها، ولم يبق منها إلاّ أطلال ماثلة ورسوم دارسة.

وما كان المنصور أنفق عشر عشيرها على بغداد حتى بناها أجلّ بلدة فى الدنيا وأحسنها وأكبرها وأبقاها؛ لأنه بناها بالرأى والتماسك. وبنى المتوكل أبنيته بالهوى والتهالك وشتّان ما بين الحالين.

وبنى بالأمس بهاء الدولة أبو النصر ببغداد من البنيان ما لم تف أمواله على كثرتها، بتشييد ما أسس منها، وإتمام ما أبدع وأغرب فيه وتركه غير مفروغ منه، وقد استهلك الأموال فى النفقات عليه وانتقل إلى الأهواز ومنها إلى فارس، وأحلّ بدار الملك، وقبة الإسلام التى فتحها أبوه عضد الدولة بثلاثين ألف سيف لعجزه عن إتمام ما بناه بها.

ومن عادات الملوك الحسنة ورسومهم المذكورة عمل الصالح وتحسين الآثار وعقد القناطر وإصلاح الطرق وبناء الرباطات ورفع المساجد وعمارة الضياع وتحسين القلاع:

ليس الفتى بالذى لا يستضاءُ به ولا تكونُ له فى الأرض آثارُ

فصل

فى استماع الملوك للشعر

من أخلاق الملوك الاستماع للأشعار البارعة التى يمدحون بها وتذكر محاسنهم ومكارمهم فيها؛ لأنها تشتمل، إما على وصف ما أعطوه من علّو المكان، واتساع السلطان، والثروة من المال، والكثرة من الرجال والأبطال، فإذا وردت على أسماعهم صوّرت فى أنفسهم صور ما أعطوه من النعم، فوصل إليهم من السرور نحو ما كان يصل إليهم لو رأوها مستجمعة لهم فى شخص واحد، وشكروا الله تعالى على ما خصّوا به من الحظوظ الوافرة والمنح المتظاهرة.

وإما على ذكر فضائلهم ومناقبهم ونشر خصائصهم ومآثرهم، فإذا وجدوها فى أنفسهم وعرفوها فى طباعهم، اهتزوا لها وفرحوا بها وبعثتهم الأريحية على الازدياد منها، ثمّ من منافع الشعر الجيّد أنه يدون ويخلّد فيسير فى الآفاق وينقب فى البلاد ويزيد الناس معرفة بفضل الممدوح به ويبقى على الأيام حتى تتداوله ألسن الرواة وتنشده صبيان المكاتب كما يردّد الفضلاء فى المجالس والمحافل، فيفيد المقصود به والمذكور فيه عمراً ثانياً ويكسبه شرفاً خالداً.

فصل

فى أنموذج من محاسن ولطائف من رسوم

الملوك قيلت فيها الأشعار

كان عبد العزيز بن مروان إذا أمطرت السماء بمصر وهو واليها نثر على ندمائه الدراهم والدنانير إلى أن تكف السماء، ففي ذلك يقول عبد الله بن الزبير الأسدي:

لقد هَطَلَتْ كَفُّ عبد العزيز لُجيناً وتبراً على مُجتديه

أَجُود ابن لَيلى يُنال المُنى ويَحظى المرجّي بما يُرتجيه؟

وكان خالد بن برمك أول من سمّى السؤّال الزوار، وذلك أن عبد الله بن شريك النُميرى صار إليه فى جماعة من الناس، ومن الأشراف والأجواد ليستميحوه فقال خالد: أنا والله أستقبح لهم أن يدعوا السؤال، ولكني أسميهم الزوار. فقال له عبد الله بن الشريك: والله ما ندرى أى بِرّيك أجدّ عندنا أصلتنا أم تسميتنا؟

وقال فى ذلك يزيد بن خالد الكوفى المعروف بابن حسانة:

حذا خالدٌ فى جوده حَذو بَرمكٍ فمجدٌ له مُستطرفٌ وأصيلُ

وكان بنو الاعدام يُعزونَ قبله إلى اسم إلى الإعدام فيه كَليلُ

يُسمّون بالسؤال فى كلِّ موطنٍ وإن كان فيه نابهٌ وجَليلُ

فسمّاهم الزوّار ستراً عليهمُ ... وذلك من فعل الكرام نبيلُ

وذكر الصولى أنّ هذا الخبر لغير خالد، فروى بإسناد له، أن المشاور بن النعمان لما ولىّ كور فارس، أتاه الناس مستمحين إياه، فقيل له: قد اجتمع سؤالك. فقال: ما أقبح هذا من اسم! هؤلاء الزوار، فسمّوا الزوار من ذلك اليوم.

فيه يقول زياد الأعجم:

إنّ المشاور أعطى فيه عطيّته ... سؤاله أحسن الأسماء للبَشَرِ

كانوا يسمّون سؤّالاً فصيّرهم ... دون البريّة زواراً ولم يُجِرِ

وكان المهتدى بالله يجلس للمظالم ويقرأ القصص، فبلغه أنه يؤخذ على تقديم بعضها على بعض دراهم، فاتخذ بيتاً كبيراً وجعل له شباكاً حديداً إلى الطريق وأمر فنودي فى الناس من أراد أن يقرأ أمير المؤمنين قصته فليطرحها إلى البيت الذى جعله للقصص من الشباك الحديد، فكان الناس يطرحون قصصهم فيه فلا يدخل البيت غيره، فيخرج ما يقع فى يده أولاً فأولاً فينظر فيه وينصف المظلوم ويقمع الظالم ويحسن النظر ويقضى الحوائج، وكان يسمّى ذلك البيت ببيت المظالم.

فقال فيه المعروف بباذنجانة الكاتب:

بنيتَ لنا بيت المظالم رأفةً ... بنا فمحا الإنصافُ من ذلك الظلما

وما كان للأملاك من قبل مثله ... ولا آثروا حَزماً ولا اجتنبوا غشما
وقد كان يَلقى صاحب الحق خيبةً ... لديهم، ويأســاً بعدما كلّف الغرما
فسهّلت ما قد كان يَصعبُ عندهم ... فأوسعتَ حَمداً مثلما أوسعوا ذمّا

فى آفات الملوك

فصل

فى تخليط الملوك

من أعظم آفات الملوك كثرة ما يصنع من مطابخهم ويهدى إلى موائدهم من بدائع الطيّبات وظرائف المأكولات واشتمال مجالس أنسهم المتصلة على ما يدعو إلى الاستكثار من الشراب وامتلاء قصورهم من كل ما يبعث على اتباع الشهوات، والإفراط فى ممارسة اللذات؛ فهم يستكثرون من هذه الثلاث التى حقهم الإقلال منها والاقتصاد فيها، وكل كثير عدوّ للطبيعة، ويتبسطون فى كلها أو بعضها فيتعرضون بإدامة التخليط لفساد المزاج وقِصر الأعمار.

وما أكثر من كان منهم صريع يده وقتيل بطنه وفَرجه، كسليمان بن عبد الملك بن مروان، فإنه كان أكل من النار وأُشرب من الرمل وأُسفد من العصفور، فأكل يوماً ثلاثين دجاجة مشوية ومائة بيضة مسلوقة وشرب أرطالاً من النبيذ وتمتّع بأربع من العذارى، فأخذته الكظة، وضعفت منة المنّة، فطرقته المنية.

وكالواثق بالله فإنه أكثر الأكل جداً، وكان يأكل على غير نقاء، حتى فسد مزاجه، واستسقى فجيء له بطبيب من جند نيسابور فأمر فأحمي له تنوراً، وجلس فيه حتى سال منه عرق كثير فصلح، فقال له الطبيب إن عاودت ما كنت عليه عادت العلة إلى حالها، ثم لا ينفعك معها مثلما عالجتك به، فلم يقبل قوله وعاد لعادته في التخليط، فعاودته العِلّة حتى أتت على نفسه.

وذكر الصولي عن محمد بن يحيى بن أبي عباد قال: سمعت أبي يقول ويحلف: أنَّ المتوكل لو لم يُقتل لما عاش، وذلك أنه قد كان خفّ دماغه ويبس بدنه من كثرة الباه، فكان يصب في أذنه أُوقية من دهن البنفسج فلا يتبين فيها، وبناله سهر كثير، وكان يقول: قد أتعب الجماع أعضائي، وأحتاج إلى أن أبلغ المراد ولا أتعب، فوصف له الزيبق، فجعل في الزقاق ومُلئت منه بركة وفرش له فوقها، وكان يبلغ ما يريد ولا يتحرك؛ إذ كانت حركة الزيبق تكفيه.

وكانت علة المكتفي ـ على شبابه ـ فساد مزاج وفرط جفاف من كثرة الغشيان، وكان دواؤه أن يقلّ الغداء، ويرطب بدنه قليلاً قليلاً، ولا يتعب فكان يفعل ضد هذا، ويُرى الأطباء أنه يحتمي، فإذا خرجوا دعا بالجبن والزيتون والصحاني، وكل ما لا يوافقه، فاستكثر فيه، وأكبّ على التمتع، فلم يزل كذلك حتى سقطت قوته واشتدّت علته وأتت عليه منيته.

فهؤلاء من الخلفاء، ومن يحصى عدد الملوك الذين اعترتهم هذه الآفة الشهوانية، كفخر الدولة، فإنه كان غير ضابط لعنان شهوته، ففرّغ يوماً القلعة التي استخدمها بالريّ على جبل طبرك، فاشتهى طرائح من لحم البقر فذبحت بين يديه واحدة منها في نهاية السمن، وطفق غلمانه يكبّون منها، وهو يجيب داعي الشره والنهم في تناولها ودارت عليه الكئوس ملأى، فلم يلبث أن رويّ عليه جوفه واتصل على الألم صوته، إلى أن هجم عليه موته.

فصل

في آفات الملوك من العبيد

ما أصدق قول علي بن الجهم من قصيدة في مقتل المتوكل بأيدي غلمانه لغيبة الطاهرية عن حضرته:

ولـو شـهدته عُـصْبَةٌ طاهـريّةٌ   مُكَـرَّمَةٌ آباؤهـا وجُـدودُها

لَعَزَّ على أيدي المَنُونِ اخترامُه   وإنْ كان مَحتُوماً عليه وُرُودُها

ولكن نـأت واسـتحلمته عبيدُه   وأعظـمُ آفـاتِ الُملـوكِ عَبـيدُها

وذاك أنه لا غنى للملوك عن العبيد والخدم بحال من الأحوال، وما كلّ ملك يوفق لإحسان سياستهم والإصابة في تربيتهم وإرضاء جميعهم.

ومن رسوم الملك رفع بعض العبيد على البعض بحسب

استحقاقاتهم، واختصاص الأصلح؛ فالأصلح لخدمتهم، والأحسن فالأحسن أثراً إلى التقرب إليهم، ومن هنا يتولد لهم التحاسد والتعادي والتنافر؛ حتى يؤدى إلى التحارب والتظافر والتعاون على العظائم، فكم من كريم عدت عليه منيته من يدى لئيم، وكم من ملك هلك عى يد مملوك.

ولله دَرّ المتنبي في قوله:

فـلا تَـنلك الليـالى إنَّ أيـديَها إذا ضَربن كسرنَ النَّبعَ بالغَرَبِ
ولا يُعـنَّ عـدوًّا أنـت قاهـره فـإنّهن يَـصدن الـصَّقر بالخَرَبِ

ومن الملوك من يفرط في ساسة غلمانه حتى يستحيلوا أعداء له يتعادون عليه، ومنهم من يرفق كل الرفق بهم، ويحتمل سوء آدابهم، ويغضى على هناتهم كأنوشروان، فإن المؤبد كان يوماً عنده فسمع ضحك الغلمان من خارج الأبواب فقال: أما تمنع هؤلاء هيبة الملك عما هم فيه؟

فقال: إنما يهابنا أعداؤنا.

وكان بعض الملوك يقول فى غلمانه: هم أمناؤنا على أرواحنا، فإذا أخفناهم فكيف نأمنهم؟

وكان المأمون يقول: من كرم الملوك سوء أدب غلمانهم.

ومن آفات الملوك ركوبهم الهوى فى تولية الغلمان المرد ما عسى

الكهول يعجزون به، والنفاذ فيه، فيجتمع عليهم بذلك: خبث ضمائر الأحرار وسوء آثار الأحداث الذين لمن يتقدم لهم حنكة في الخطوب وممارسة الحروب.

وما يستظرف لابن المعتز قوله في غلام أمرد جعل أميراً على الجيش:

جعلت لتأمير البلاد مقرطقاً تنوء بكشح في القباء هضيم
وتذكر عراب البلاد إذا بدا بخد كعاب أو بمقلة ريم
وإن رام أمراً لم ينله بكى له بكاء وليد في الحجور فطيم
يداه تحث الكأس إذا ما مشى إلى القرن من رمح بهز قويم

وكان لمعزّ الدولة أبي الحسن بن بويه غلام يدعى "تكين الجامدار" أمرد وضيء الوجه، منهمك في الشرب لا يفارق اللّهو ولا يعرف الصحو، فلفرط ميله إليه جعله رئيس سرية جرها لمحاربة أبي المرجا وهبة الله بن ناصر الدولة أبي محمد بن حمدان، فأشار عليه أبو محمد المهلبي الوزير، بأن لا يخرجه في مثل ذلك الوجه وأن يعدل عنه إلى أحد مشايخ القواد المحنكين المجربين، الحزماء، الحصفاء، فلم يقبل منه وأنفذه في ألف رجل جريدة، فأطلوا على أبي المرجا وهبة الله وأرهقوهما، فأفرجا عن جميع ما كان لهما من الكراع والأثقال والآلات، فتفرق العسكر في نهب ذلك وعجّلوا بالنزول في خيم القوم

فيا استقروا حتى عطف أولئك عليهم، فصارت الكبسة لهم وقتلوا منهم وأسروا واقتصوا وزادوا، ونجا تكين الجامدار على فرسه فوقع عليه بعض صعاليك العَرب ليسلبه ويأخذه، فعرفه نفسه، وضمن له ما أرغبه حتى جاء به أي معزّ الدولة فيا سلم من القوم غيره وغير مرعوب وجند من أصاغر الجند، فبان لمعز الدولة موقع ما أشار به المهلبي، ولكنه لم يعترف به ولا أظهره.

قال أبو إسحاق الصابي: أنشدني المهلبي لنفسه في هذا الغلام – وكان يستظرفه ويستحسن صورته – ويرى أنه من عُدد الهوى لا من عدد الوغى:

طفلٌ يرقّ الماءُ في … وجناته ويرف عوده

ويكادُ من شبه العَذارى … فيه أن تبدو نهوده

ناطوا بمعقدِ خصرِه … سيفاً ومنطقه تؤوده

جعلوه قائدَ عسكرٍ … ضاعَ الرعيلُ ومن يقودُهُ

فصل

في عظم الشدائد التي تعرض للملوك

من آفات الملوك أن محنهم في العظم والشدة على حسب أقدارهم في العلو والرفعة، وإن الشدائد التي تعرض لهم أدهى وأمرّ مما تعرض لغيرهم، صرف الله تعالى عن مولانا الملك السّيد نوائب الزمان

وطوارق الحدثان، ووفر حظه من سعود الفلك والملوك ونعمهم وأعاذه من نحوسهم ونقمهم وجعل على نفسه وملكه واقية باقية بطوله وحوله.

ومعلوم أنه لم يملك الدنيا كملوك بنى العباس؛ فإن الله أعطاهم مفاتيح الأرض وملكهم نواصي الخلق حتى حازوا ملك الأكاسرة والقياصرة والفراعنة والتبابعة والطراخنة وغيرهم من الملوك والجبابرة، وكانت المحن التى أصابتهم والبواهق التى حلت بهم بإزاء ما أتوه من جلائل النعم ورغائب القسم.

ولو ذكرت جميعها خرجت من رسم الكتاب إلى حد الإسهاب؛ ولكنى أورد نكتاً فيها عبرة للمعتبر وعظة للمستبصر:

فمنها: أن محمد الأمين لما حاصره طاهر بن الحسين فاشتدّ عليه الحصار وضاق الأمر به شغب عليه جنده فى طلب الأرزاق فأصبح يوماً وحجارة المنجنيق يسقط على فرشه، وهو يسمع ضوضاء المحاصرين من جهة وأصوات جنده الشاغبين من أخرى، فقال وقد خنقته العبرة: لعن [الله] الفريقين! أما أولئك فيطلبون دمى، وأما هؤلاء فيريدون مالى.

ثمّ لم تطل به المدة حتى ظُفر به وقتل.

ومنها محنة المتوكل: فإنه كان ليلة فى مجلس أنسه قد أحدق به الندماء والمطربون ودارت الكئوس، وطابت النفوس فهجم عليه

جماعة من الأتراك بمواطأة المنتصر، وتولى ضربه وقتله منهم باغر التركى، وانقلب مجلس اللهو والطرب بمجلس الويل والحرب وأكثر الشعراء فى وصف المقتل، وأحسن منهم أحمد بن إبراهيم الأسدى فى قوله:

هكــذا فلــتكن مــنايا الكــرام ... بــين نـــاي ومزهـــرٍ ومُــدام

بــين كأســين أرويــاه جمــيعاً ... كــأس لذاتــه وكــأس الحِمــام

ومنها: محنة المستعين بالله؛ وذلك أنه لما اضطر إلى خلع نفسه من الخلافة ومبايعة المعتز بالله أحضر ابن أبى الشوارب القاضي ليقرأ الشرط على المستعين بالخلع فقال له ابن أبى الشوارب: يا أمير المؤمنين أشهد عليك بما فى هذا الكتاب؟ قال: نعم، فقال: خار الله لك يا أبا العباس، فبكى المستعين بالله، وقال: اللّهم إن كنت خلعتنى من خلافتك فلا تخلعنى من رحمتك، ثم أنشأ يقول:

كــلُّ ملــك مصــيره لــذهاب ... غــير ملــك المهــيمن الــوهاب

كــلُّ مــا تــرى يــزول ويفنــى ... ويجــازى العــباد يــوم الحســاب

ثم قال له: اختر بلدة تنزلها، فقال: قد اخترت البصرة، فقيل له: إنها حارة، فقال: أترونها أحرّ من فقد الخلافة؟

ومنها محنة المعتزّ بالله حين خلعه الترك، وضربوه وسحبوه وهو حافي حاسر والزمان حارة القيظ والوقت وقت الهاجرة، وطلب نعالاً

يلبسها فلم يعطها، فأوخى سراويله ومشى عليها ثم إنهم ساموه سوء العذاب، فأدخلوه حماماً وهو عطشان مكدود فجاءه بعض مواليه بإناء فيه ثلج، فحين شربه مات.

ومنها: محنة المهتدى بالله، وكان سفيان الثورى [يقول]: الخلفاء خمسة، الأربعة الراشدون وعمر بن عبد العزيز قالوا والسادس المهتدى لا شك فيه، فإنه كان بسيرة العمرين وينصف ويعدل ويجتهد، فكان قد عظم فى أعين الناس عامة، والأتراك خاصة، حتى إذا ركب فرآه الناس ارتفع ضجيجهم بالبكاء والدعاء، ومن مآثره أنه أمر ببيع آلات الملاهى ونفى المغنين والمخنثين عن "سر من رأى" وردّ هدايا النيروز والمهرجان، وجلس للمظالم فما وجد فيها تغيراً حتى احتال من يتعصب لولد المتوكل بأن قال للأتراك هذا كافر، وهو يرى السيف عليكم، فقالوا والله ما نرى سيماء الكفر عليه فقال لهم: أليس الرهبان فى الصوامع يتعبدون، وقد تركوا الدنيا وهم فى النار كفار فهذا مثل أولئك.

ولما أتى المهتدى من عدله وورعه، ولم يرض الأتراك سيرته المرضية حاربوه فقاتلهم، وخذله من يثق بهم، فقال وهو يستغيث بالعامة: ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم؟ فما أغاثه أحد، حتى أخذ وقتل.

ومنها: محنة المعتمد على الله، فإنه مع تطاول أيامه واستمرار السلامة به، كان ممتحناً باستيلاء الأتراك عليه واستخفافهم به،

واستبداد الموفق دونه بالأمور حتى قال: أصبحت لا أملك دفعاً لما أسام من خسف، ومن ذلة يُمضى أمور الناس دونى ولا يشعرنى فى ذِكرها قلة، إذا اشتهيت الشيء ألووا به عنى وقالوا ههنا عِلة، وطلب فى ليلة من الليالى ثلاثمائة دينار فلم يجدها، فقال:

أليسَ من العجائب أنّ مثلى ... يرى ما قلّ مُمتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شيء فى يديه
إليه تحملُ الأموالُ طراً ... ويُمنعُ بعض ما يُجبى إليه

فصل

فى جمل وجوامع من آفات الملوك

فمنها أن الملك إذا طالت أيامه ولو فى العدل وحسن السياسة والسيرة، وقعت من رعيته الملامة لطول الولاية واعترى نفوسهم الضجر والسآمة، وما أصدق من قال:

لا يرتضى المرءُ حاله أبداً ... لا صغراً يرتضى ولا كبرا
ألذّ أحواله الشباب ولو ... دام لأبدى الملام والضجرا

وهى الحال التى أشار إليها الشاعر بقوله:

إذا لم يكن للمرء فى دولة امرئ ... نصيبٌ ولا حظٌ، تمنّى زوالها

وما ذاك عن بغض لها غير أنه   يرجّى سواها ؛ فهو يرجو انتقالها

ومنها تولع العامة بالملوك وحبهم الطعن عليهم، والتجسس عن أخبارهم، ونشر المعايب عنهم، ولم تزل هذه الخلال فى طبائع الناس، لا يكاد ينجو منها إلاّ من رجح علمه وعظمت مروءته وظهر سؤدده، واشتد ورعه.

وكان معاوية يقول: أتدرون من النبيل؟ أنا أخبركم عن النبيل هو الذى إذا حضر رأيتموه، وإذا غاب عبتموه، وهذه سبيل العظماء عند العوام، والملوك عند الرعيّة، والسادة عند العبيد.

ومنها أن الرجل المخوف على الملك قد يكون محبوساً عند القائم، لما يوجبه حكم السياسة من الاحتفاظ به والاستيثاق منه، فيموت حتف أنفه، فلا يشك الناس أن الملك هو الذى أمر بقتله، ويموت على فراشه فلا يشكون أنه هو الذى دسّ إليه السموم ومشى على دمه ويموت وهو ناءٍ عنه، فلا يشكّون أنه قد احتال له ويقدم فى ذلك على يد طبيب أو خادم أو طباخ أو صاحب شراب على بعد داره، ونأى قراره، ولو تمنع مكانه واشتدّ احترازه واحتراسه ولو قتلته هفيف الريح أو صعقته صاعقة لوجد من يقول فيه قولاً.

ومنها كثرة أعداء الملوك وحسّادهم وأضدادهم ممن فوقهم من الملوك، وممن دونهم ومن أشكالهم ونظرائهم وأقربائهم لأسباب

مختلفة وأحوال متباينة، وما يحتاج إليه الملك فى آناء ليله ونهاره وعند إقامته وظعنه وسكونه وحركته من التيقظ والتحفظ من معارفهم ومضاربهم ودبيب عقاربهم ومكايدهم، وما يستغنى من شدّة الاحتياط على كل ما يأكله ويشربه محترزاً من غوائل السمّ الذى هو أعظم آفات الملوك ولا يحصى عدد المهلكين به منهم لا سيما فى الشمامات فإنها إن كانت مسمومة طارت فى الدماغ، فأفسدته فى الوقت والساعة وولدت رعافاً قاتلاً، حرس الله مولانا الملك بعينه التى لا تنام وأطال بقاءه فى ضمان كفايته وحسن رعايته.

ومنها أن الخدعة المهرة الكفرة من دعاة أهل الأهواء والبدع وذوى الإلحاد فى النحل كالباطنية والقرامطة والإسماعيلية، والذين يقولون بالطبائع والنجوم ولا يثبتون النبوءات ويسمون الأنبياء أصحاب النواميس والخوائج، كثيراً ما يتوصلون إلى مداخلة أعمال الملوك ممن لم يسمعوا كلام المتكلمين ولم ينظروا فى علم الكلام، فيخلون بهم ويخدعونهم برقاهم المزخرفة وشبههم المزوقة وأقاويلهم المزيفة، ويخرجونهم بزعمهم من رق الشريعة إلى حرية الإلحاد، ويكفونهم من إسار الديانة ويرخصون لهم فى ترك الصلوات وسائر العبادات، واتباع الشهوات فيسلسل قيادهم لهم، ويحصل أعنتهم فى أيديهم؛ إذ يغتنمون الراحة والدعة والأمن والسعة؛ فيتبسطون فى ارتكاب المحارم واقتراف المآثم وإراقة الدماء والأخذ للأموال، ونقض العهود والسجلات والاستخفاف بالإسلام.

وقد كان السعيد نصر بن أحمد وقع في هذه الشبكة من جهة أبي الطيب المصعبي وأبي الحسن بن سوادة الرازي؛ فإنهما كانا من أنياب الملحدين، ومن أشدّ الناس اختصاصاً بالسعيد، ومن خبره أنه قد كان تاب من الشراب وندم على سفك الدماء، وخاف مقام ربه، وقرع باب النسك فكان يخلو بالدعاء والبكاء ويخاف الموت أشدّ الخوف فما زال المصعبي وابن سوادة يخدعانه بمعسول كلامهما ويدرجانه إلى مذهبهما ويقولان له إن الهمّ والغمّ لا يدفعان مكروهاً ومحذوراً، والأصوب مباشرة اللذات ومعاقرة الكاسات وسماع القيان الحسان؛ لتستريح النفس الناطقة من كدها في هذا العالم الجسداني الذي كله هموم وآلام لا يدفعها إلاّ اللهو والطرب والعزف والقصب ويصوران لديه أن مرارة الموت في خوفه وأنه اللذة الكلية والراحة العظمى؛ لأنه باب العالم الروحاني الذي لا آلام فيه ولا أحزان ولا أهوال، وما يشبه هذه الخرافات حتى مال إلى قولهما وانخرط في سلكهما، ودخل أبو علي الجباني مدخلهما وزاد عليهما بأن كان يسمي أصحاب الفقه: أصحاب القذرات، يعني أنهم يتكلمون في الاستنجاء والحيض وما أشبههما، ثم إنهم زينوا لذلك المذهب: مذهب الإسماعيلية وهو مذهب أحمد بن محمد البزدهي، وحملوه على استدعائه والإصغاء إلى كلامه، فأمر بإحضاره فأحضر وأجل وبجل ووقع القبول لما أظهره من الرعونة والدعوة الملعونة، فأمر السعيد بضرب سبعين ديناراً في كل دينار منها مائة مثقال لتنفذ إلى صاحب الجزيرة، وهو عندهم إمام تلك الدعوة،

فضربت وصنع الله للإسلام في هلاك المصعبي، وضعف أمر القوم وذهب الزبد جفاء، ورجع البزدهي إلى قريته متمسكاً بضلاله، وعنده بعض تلك الدنانير وعند ابن سوادة بعضها، فلما توفي السعيد وقام مقامه ولده الحميد عاد ابن سوادة في تزيين ذلك المذهب عنده وكتب إلى البزدهي في إنفاذ حذاق دعاته وأجدلهم وأنطقهم إلى حضرة الحميد ليدعوه ففعل، وكان الحميد مستبصراً متفقهاً في الدين آخذاً عن محمد المعروف بالحاكم الجليل، وهو إمام في مذهب أبي حنيفة فلما جاء رسول البزدهي وصل إلى حضرته في السر وعرض عليه الدعوة فقال له الحميد: إن كانت الدعوة إلى غير الإسلام، فأعوذ بالله منها وإن كانت إلى الإسلام فقد سبقكم إليها محمد، سيّد دعاة الحق وهو النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ولا مزيد على كمال دينه، وحسن ما نقل إلينا من آثاره وأحكامه، وهب أني قبلت هذا المذهب فما معنى ستره عن الناس، وهذا زهير – على كفره – يقول:

والسِّتْرُ دونَ الفاحشاتِ ولا يلقاكَ دُونَ الخيرِ من سِترِ

فقال الرسول: هكذا الإمام، فقال: هذا لا يخلو من أن يكون خوفاً من العامة أو من الخاصة أو من السلطان، فإن كان لخوف العامة فهم رعيتي وما فيهم من يجسر على مخالفتي، وإن كان لخوف الخاصة فأي سلطان فوقي وأي يد فوق يدي، فلم يبق وجه لستر هذا الدين ولا للمين والعهد فيه فبهت الذين كفروا والتقم الحجر ولم يحر جواباً وعاد

إلى البزدهى وأخبره بما جرى، فأيقن بالشر، ولم يلبث الحميد أن طالب ابن سوادة بالدنانير المذكورة، فأنكرها وحلف بالأيمان المغلظة أنها ليست عنده ولا له علم بها ولا هى فى داره ولا عند أحد من أصحابه، ثم عثر على أكثر تلك الدنانير فى بعض مخابئ داره، فأخرجت فنكبه الحميد وبطش به حتى هلك وأشخص البزدهى وطولب ببقية الدنانير، فلم يفرج عنها وخوطب فى مذهبه. فالتمس المناظرة وقال إن كانت الحجة علىّ تبت من مذهبى ورجعت عن رأيى فلم يناظره واستفتى الفقهاء فى أمره، فأفتوا بقتله، فقتل وصُلب.

وممن أدركه شؤم هذا المذهب الفاسد من ملوك الزمان بكر بن مالك، وأبو على بن إلياس وأبو جعفر بن بانوا – والد خلف – وطاهر ابن محمد السجزى وأبو على بن سيمجور، وقد كانت هذه النحلة الرديئة باضت وفرخت بخراسان، ولولا تشمير السلطان المعظم يمين الدولة وأمين الملة أبى القاسم محمود بن ناصر الدين عن ساق الجدّ فى نصرة الإيمان وإقامة شعائر الإسلام وحصد نواجم الإلحاد من أصولها، وقلع نوابت التعطيل بعروقها، لرفعت الفكرة الفجرة أنجادها، وأصبحت آثار الدين طامسة ومعالم الإسلام دارسة ورءوس المسلمين ناكسة، ولكنه جرى على قوة بصيرته وحسن سريرته فى حياطة الدين وشدته على الملحدين، وروى سيوفه من دماء أهل الخيان وعصبة الضلال، فلم يدع للباطل علماً إلا أضعفه فوضعه،

ولا ركناً له إلاّ ضعضعه؛ حتى عادت أمور الدين خير معاد، واتقمع كل حاسد للإسلام ومعاد. والله تعالى يشكل سعيه ويطيل عمره ويجزيه كل خير عن وثاقة دينه واستحكام يقينه ويديم له النجم صاعداً والزمان مساعداً، ولا يخليه من الأمر الرشيد والمقام الحميد، ونبدأ في كل ذلك بمولانا الملك ونجعل الحظ الأوفى والنصيب الأوفر من الدعوات الصالحة له بمنّه.

فى خدمة الملوك وآداب أصحابهم

فصل

فى الخدمة

كان يقال من خَدم الملوك خُدم، وقال أبو تمام:

فإنى لم أخدمك إلا لأخدما

وكان يقال: خادم الملوك بلا آلة، كراكب البحر بلا سفينة.

ومن فصول ابن المعتز من نصح الخدمة نصحته المجازاة.

وفى كتاب اليتيمة لابن المقفع: من خدم الملوك فعليه بالملازمة من غير معاتبة.

وكان يقال: أربعة لا يُستحى من خدمتهم:

السلطان والوالد والضيف والفَرَس.

وفى كتاب كليلة ودمنة: ليس كل من يخدم الملوك لبطنه؛ فإن البطن تشبع بكل مكان، ولكن لمنزلة تسر الصديق وتسوء العدو.

وقد كتبتُ ما سمعت أبا نصر ابن أبي زيد يقوله ولا بأس بإعادته فهذا مكانه: من خدم ملكاً فهو خادم من جهة، وملك من أخرى، ومن خدم سوقة فهو خادم من الجهات كلها.

وفي أمثال العجم:

من تبع الأسود لم يعدم لحوم الصّيد.

ومن الشعر السارى على كل لسان:

خِدمةُ السلطان والكاسات من أيدي الملاح.

فصل

في صعوبة خدمة الملوك

قال الفضل بن مروان: أغلظ إليّ المأمون في شيء جرى، ثمّ استبان عذرى فاستحيا وقال:

يا فضل إن فينا – معشر الملوك – محكاً وحسداً واستئثاراً وولعاً وحقداً وفزعاً.

وكان الفضل يقول: من بالغ جهده في مناصحة السلطان اتهمه، ومن عرف منه مذهباً في دينه يخالف مذهبه غيره ورصده بالعقاب عليه، وما رأيت أقرب رضى من سخط ولا أسرع ما بين قرب وبعد من الملوك.

وكان يقال: إياكم والسلطان فإنه يغضب غضب الصبي، ويأخذ أخذ الأسد.

وفي وصية لقمان: يا بني، احذر البحر إذا مدّ والملك إذا غضب.

وفي كتاب كليلة:

خاطر من لجج في البحر، وأشدّ منه مخاطرة خادم السلطان.

وفي فصول ابن المعتز:

أشقى الناس بالسلطان أقربهم منه، كما أن أقرب الأشياء من النار أسرع احتراقاً. وفيها: لا يدرك الغنى بالسلطان إلاّ نفس خائفة، وجسم تَعِبٌ، ودينٌ متثلِّم.

ومن ألفاظ البديع الهمذاني:

الملوك إن خدمتهم ملّوك وإن لم تخدمهم أذلّوك.

وأنشدني أبو الفتح البستي:

سل الله الغنى تسل جَواداً أمنت على خَزائنه النَّفادا
وإن حاباك سلطان بقرب فلا تغفل ترقبك البعادا
وقد تدني الملوك لدى رضاها وتُبعد حين تحتقد احتقادا
كما المرّيخ في التثليث يعطي وفي التربيع يسلبُ ما أفادا

فصل

في ذكر قوم من الأدباء نُسبوا إلى سوء الأدب بين أيدي الملوك في أشياء ليست من سوء الأدب عند العامة وأكثر الخاصة

دخل الشعبيّ على عبد الملك بن مروان أول دخلة فلما أخذ في الكلام كنّى رجلاً فقال له عبد الملك أخطأت؛ الملوك لا يكنّى أحد بحضرتهم. وجرى حديث فقال اكتبنيه يا أمير المؤمنين، فقال أخطأت الملوك لا يستكتبون، واستفهمه كلاماً فقال ولا يستفهمون؛ ثم استعاده فقال ولا يستعادون، فخرج من مجلسه يجرّ ذيل الخجل.

وكان كثيّر يحضر [سمر] يزيد بن عبد الملك فقال له ليلة: يا أمير المؤمنين ما يعني الشماخ بقوله:

وقد عَرَقَتْ مغابنُها وجادتْ بدرّتها قِرى حَجِنٍ قَتينِ

فقال: وما يضرّ أمير المؤمنين أن لا يعرف ما قاله أعرابي بوّال على عقبيه هو القراد أشبه خلق الله بك! وكان كثيّر قصيراً قميئاً دميماً.

وقال الرشيد يوماً للأصمعي: أخبرني عن فلان - لإنسان من العرب - فقال له: على الخبير سقطت يا أمير المؤمنين. فقال له الفضل ابن الربيع: أسقط الله أنفك وعينيك، أهكذا يخاطب الخلفاء؟

ودخل الفيض بن أبي صالح على الرشيد فمدّ يده إليه ليقبلها فلم ينكب عليها ورفعها إلى فيه فقبّلها، فقال الرشيد: لولا حمقه لقتلته.

وأوصل أحمد بن أبى خالد بعض الأدباء إلى مجلس المأمون فطاوله الحديث، فلما خرج قال لأحمد فهل أنكرت منى شيئاً؟ قال: نعم، ضحك أمير المؤمنين وضحكت أكثر من ضحكه، والضحك بين أيدى الملوك سوء أدب، لا سيما إذا كان أكثر من ضحكهم.

وحكى الصولى قال:

قال لى المكتفى وقد أنشدته شعراً بعد إنشاد يحيى بن على المنجم: أنت يا صولى أشعر من يحيى، فقلت رأى مولانا فى عبده، وإلاّ فيحيى أشعر، فلما خرجت قال لى القاسم بن عبيد الله [وكان] حاضراً ما جرى:

أخطأت فى ردّك قوله حين قلت له يحيى أشعر منى، وقد قال أنتَ أشعر منه، والملوك لا يواجهون بالردّ، وإنما يقع تعريض بالمراد والمعنى، فقلت: والله ما فطنت لهذا وقد تعلمت الآن.

فصل

فى الدخول على الملوك والقعود عندهم

لما أراد مالك بن أنس الدخول على الرشيد أول دخلة، قال للفضل ابن الربيع: علمنى كيف أدخل إلى أمير المؤمنين وكيف أُسلّم عليه وأين أقف من مجلسه؟

ومما أجمع عليه أهل الخبرة بخدمة الملوك أنه يجب على الداخل إلى

الملك أن يتعمد العدول عن الطريق الذى تقابله يمنة أو يسرة ثم ينجرف إلى مجلس الملك ويقف ويقيم الرسم فى خدمة مثله، فإن استدناه الملك دنا خطى ثلاثاً أو نحوها ووقف، فإن استدناه ثانياً دنا نحواً من دنوّه الأول، ولم ينظر إلى تعب الملك فى إشارة أو تحريك جارحة، فإن ذلك وإن كانت على الملك فيه معاناة، فهو مما يجرى فى طريق إجلاله وتعظيمه، فإذا أمسك الملك عن الإشارة أو الحركة وقف فى المكان الذى يقطع الملك إشارته عند انتهائه إليه، ومثل قائماً فإن أومأ إليه بالقعود قعد مقعياً أو جاثياً فإن كلّمه أجابه بانخفاض صوت، وقلة حركة وحسن استماع، فإذا قطع الملك كلامه قام فرجع القهقرى، وإن أمكنه أن يستتر عن وجهه بجدار، أو مسلك لا يحاذيه فعل ثم مشى كيف شاء، ومن حق الملك أن لا يطيل أحد القعود، فإن أخطأ مخطئ فى ذلك، فإن أذن له الملك فى الانصراف أن يلحظه فإذا عرف ذلك ولم يقم، كان مما يحتاج إلى أدب وكان الذى وصله بالملك له ولنفسه.

وكان يقال: لئن يقال تقدّم أمامك خير من أن يقال تأخر من ورائك.

ويقال: اجلس حيث يؤخذ بيدك وتبر، لا حيث تؤخذ برجلك وتجر.

قال أحمد بن الطيّب السرخسى: اختلاف صور الجالسين على قدر

اختلاف صور أحوالهم: فللملوك جلسة، وللمتعلم جلسة، وللنديم جلسة، وينبغي للنديم ولغيره أن يعطيه الملك حال الجلسة التي يستحق؛ فهي من حسن الأدب.

فصل

في غُرر من الوصايا لأصحاب الملوك

الأصل فيها قول العباس بن عبد المطلب لابنه: يا بنيّ إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد قرّبك واختارك على الكبراء من الصحابة وقدّمك عليهم، فاحفظ عني في أمرهم ثلاث خصال: لا تفشين له سرّاً ولا تغتابن عنده أحداً ولا يطلعن منك على كذبة.

وقال زياد لابنه: إذا دخلت على معاوية فادع له ثم اصفح صفحاً جميلاً ولا يرين منك تهالكاً ولا انقباضاً عنه.

وقال جليس لعبد الله بن زياد له: أيها الأمير أعلمني ما يوافقك حتى أمتثله ولا أجوز إلى غيره؛ فلعلي أثقل عليك، من حيث لا أدري. قال: طلبت الأمر من وجهه لا تكثرنّ إتياني فأملك ولا تقعدن عني كل القعود فأنساك، ولا تكثرن طلب الحوائج للناس فيُبخل عليك بحاجتك.

وقال عبد الملك بن صالح الهاشمي لجليس له: كن على التماس الحظ بالسكوت أحرص منك على التماسه بالكلام، ولا تساعدني على

ما يقبح بي، ولا تردّ على الخطأ فى مجلسي، ولا تكلفني جواب التشميت والتهنئة، ولا جواب السؤال، ودع عنك كيف أصبح الأمير وأمسى.

فصل

فيما اختير من آداب ابن المقفع فى وصاياه لهم

لا تكوننّ صحبتك للسلوك إلاّ بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم فى المكروه عندك وموافقتهم فيما خالفك وتقدير الأمور على أهوائهم دون هواك، فإن كنت حافظاً إذا ولّوك، حذراً إذا قربوك أميناً إذا ائتمنوك، تعلمهم وكأنك تتعلم منهم، وتؤدبهم وكأنك تتأدب بهم وتشكر [لهم] ولا تكلفهم الشكر، وكنت كافياً إذا صرفوك، راضياً إذا أسخطوك، وإلاّ فالبعد عنهم كل البعد والحذر كل الحذر.

وقال: إذا صحبت الملك فعليك بطول الملازمة فى غير معاتبة، وإذا نزلت عنده بمنزلة الثقة، فاعزل عنه كلام الملق، ولا تكثرن له من الدعاء، إلاّ أن تكلمه على رءوس الناس فلا يكونن طلبك ما عنده بالمسألة ولا يستبطئه، وإن أبطأ اطلبه بالاستحقاق، ولا تخبره أن لك عليه حقاً، وإنك تعتد عليه بخدمته وحرمه، ولا تعطينه المجهود كله فى أول الصحبة، ولا تجد موضعاً للمزيد، ولكن دع للمزيد موضعاً، وإذا سأل غيرك فلا تكن المجيب، واعلم أن استلابك للكلام، استخفاف به، ولا تسار فى مجلسه أحداً، فإن السرار يخيل إلى كل من

رآه من سلطان أوغيره أنه المراد به، وإذا كلمك فاصغ لكلامه، ولا تشغل طرفك عنه بنظر ولا قلبك بحديث نظر.

وقال أيضاً: جانب المسخوط عليه والظنين عند الملك ولا يجمعنك وإياه مجلس ولا منزل، ولا تظهرن له عذراً ولاتثن عليه عند كل أحد، فإذا رأيته قد بلغ فى الانتقام ما ترجو أن يلين بعده فاعمل على استجلاب رضاه عنه برفق وتلطف.

فصل

فى نكت من آداب أصحاب الملوك

كان معاوية يقول: لا يغلب على الملك بشيء كحسن الاستماع إلى حديثه والحلم عند سورته.

وكان مسلم بن عمر يقول: ينبغى لمن خدم الملوك أن لا يغتر بهم إذا رضوا عنه، ولا يتغير لهم إذا سخطوا عليه، ولا يستثقل ما حملوه ولا يخف فى مسألتهم.

وكان شبيب بن شيبة يقول: ينبغى لمن ساير الملوك أن يكون بالموضع الذى إذا أراد الملك أن يسأله عن شيء لم يحتج إلى أن يلتفت، ويكون من ناحية إن التفت لم يستقبل الشمس، وإذا سار بين يديه فينبغى أن يحيد عن سفين الريح التى تؤدى الغبار إلى وجهه.

ويقال: إن سعيد بن مسلم بن قتيبة بينما هو يساير موسى الهادى وعبد الله بن مالك أمامه والحربة بين يديه فكانت الريح تسفى التراب التى تثير دابة عبد الله فى وجه موسى الهادى، وعبد الله لا يشعر بذلك والهادى يحيد عن سفى التراب ما يؤذيه، فلما كثر الأذى عليه قال لسعيد: أما ترى ما تلقاه من هذا الخائن فى سفرنا هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين ما قصر فى الاجتهاد ولكنه حرم التوفيق!

فصل

فى مجالسة الملوك ومنادمتهم

ينبغى لمن يجالس الملك وينادمه، أن يديم الأخذ بأطرافه وأن ينظف جسمه، ويطهر ثوبه ويجمل هيئته ويظهر مروءته، ويحسن جلسته، ويجمع كل عقله وأدبه لخدمته، ويغض من بصره، وصوته فى مجلسه، ولا يكلمه مبتدئاً؛ حتى يكون الملك هو المبتدئ بحديثه، ويحسن الاستماع إلى كلامه، ويصرف إليه مجامع فكره وذهنه، وإن كان يعرف الحديث الذى يحدث به الملك فليصغ إليه إصغاء من لم يسمعه قط، وليظهر الاستبشار به والاهتزاز للاقتباس من نوره والاغتراف من بحره، فإذا أنس به الملك فأقبل عليه واسترسل إليه وطاوله الحديث وهازله وضاحكه، وأفضى إليه بسره واختصه دون نظرائه، فينبغى أن يدخل إليه بعد ذلك دخول من لم يجر بينهما أنس قط، ويظهر من الإجلال والتعظيم والخشوع والخضوع أكثر ما كان عليه قبل؛ فقد

نصح من قال: إذا اتخذك الملك أباً فاتخذه رباً، وإذا زادك تأنيساً فزده إجلالاً.

ويجب عليه أن يخفض صوته بحضرة الملك، ويتأدب بأدب الله تعالى في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ ﴾ (الحجرات: ٢) وأن يحسن المحضر لكل من يجري حضوره بين يدي الملك ويقول له حسناً.

ومما يحسن ويستحب من أفعال جلساء الملوك، ما فعله جليس كان للمنصور، وذلك أنه أتي بشيخ كبير كان خرج عليه من ناحية المغرب فلما وقع بصره عليه اغتاظ، وأمر بتمزيق ثيابه وإقامته بين العقابين، فحين أخذته السياط تمثل بقول الشاعر:

أتروض عرسك بعدما هرمت ومن العناء رياضة الهرم

فلو سمعه المنصور لأمر بضرب عنقه، فقال: ماذا يقول؟ فقال الجليس: تمثل ببيت عنترة:

العبد عبدكم والمال مالكم فهل عذابك عني اليوم مصروف؟!

فرقّ له وأمر بتخلية سبيله وأخذ الكفيل منه.

قال صاحب "أخلاق الملوك" من حقّ الملك أن لا يرفع أحد من خاصته وبطانته رأسه إلى حرمة له صغرت أم كبرت، ولا يملأ عينيه

من غلام له صبيح أو قبيح، فكم من فيل قد وطئ رأس رئيس حتى تناثر دماغه، وداس بطنه حتى بذت أمعاؤه. وكم من شريف وعزيز قوم قد مزقت السباع جلده، وتنهشت لحمه، وتمشمشت عظامه، وكم من جمجمة كانت تصان وتعلّى بالمسك والبان، وقد نبذت بالعراء وغيبت جثتها في الثرى بسبب حرم الملوك وخدمهم وغلمانهم، وكم من جارية عزيزة كأنها فلقة قمر على برج فضة، قد أكلتها حيتان البحر وطير الماء من تهمة اتجهت عليها ممن رفع طرفه إليها.

قال: وينبغي أن يكون نديم الملك معتدل الطبيعة، لا الصفراء تقلقله، ولا البلغم يكثر مقامه، ولا السوداء تضجره وتطيل فكره، فأما الدم فليس يدخل في هذه الأقسام المذمومة؛ إذ بالبدن إليه حاجة كحاجته إلى تركيبه وسلامته.

قال: وليس لنديم الملك أن يختار كمية ما يشرب ولا كيفيته لأنهما إلى الملك، إلاّ أن من حق الملك أن يأمر بالعدل عليه والوقوف به عند حدّ استطاعته وإعفائه عن الشرب إذا بلغ مجهود غايته فيه.

قال: ومن حق الملك إذا غلبت عيناه أن ينهض من حضره من صغير أو كبير بحركة لينة خفيفة حتى يتواروا عن مجلسه، ويكونوا بحيث يقربون منه إن انتبه، ولا يقولنّ جليس الملك في نفسه: لعلّ الملك إن هبّ من نومه لا يسأل عني؛ فإن ذلك من أكبر الخطأ.

ونختم هذا الفصل ببيتين أنشدنيهما أبو الفتح البستي لنفسه، وهما مما ينبغي للنديم أن يكتبه في السوادين من عينيه:

إذا خـدمت الملـوك فالـبس   مـن التوقّـي أعـزّ ملبسْ
وادخـل علـيهم وأنـت أعمـى   واخرج – إذا ما خرجت – أخرسْ

فصل

فى الهدية

مما يجب على خدم الملوك: إقامة رسم الهدايا فى النيروز والمهرجان، وعند الحجامة والفصد، وشرب الدواء، والقدوم من الأسفار، فإن الهدية عادة مشكورة، وسنة مأثورة.

وفى الخبر عن النبى ﷺ: "تهادوا تحابُّوا".

وكان يقال: أهدوا إلى الولاة فإنهم إن لم يقبلوا أحبّوا.

وكان الفضل بن سهل يقول:

ما أُرضى الغضبان، ولا استعطف السلطان، ولا سلّت السخائم ولا دفعت المغارم، ولا استميل المحبوب ولا توقى المحذور بمثل الهدية.

فأحسن ما قيل فى الإهداء إلى الملوك قول أحمد بن يوسف للمأمون:

على العبد حَقٌّ فهو لابدَّ فاعلُهْ   وإنْ عَظُم المولى وجلّت فضائِلُهْ
ألم تَرَنا نهـدى إلى الله مالَـهُ   وإنْ كانَ عنه ذا غنى فهو قابلُهْ

وكنت افتتحت كتاباً فى الهدايا وما قيل فيها نظماً ونثراً فعاقت العوائق عن استتمامه واختتامه، ولعله يقع فى مائتى ورقة.

ومن ملح ذلك الباب وظرفه ما كتب أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ إلى شرف الدولة أبى الفوارس [ابن] عضد الدولة مع درهمين خسروانيين وكتاب المسالك والممالك فى دفترين:

أهدى إليك بحسب حَالى ... فى الخَصاصة درهمينِ

وبحسب قَدرك دفترين ... هما جَميعُ الخافقينِ

فإذا افتحتهما رأيت ... بيانَ ذاك بلحظِ عَينِ

وكتب إلى عضد الدولة مع اصطرلاب أهداه إليه:

أهدى إليك بنو الآمالِ واحتفلوا ... في مهرجانٍ جديدٍ أنتَ تُعليه

لكن عبدك إبراهيم حين رأى ... عُلوَّ قَدرِك عن شيءٍ يُدانيه

لم يرض بالأرض مهداةً إليك فقد ... أهدى لك الفلكَ الأعلى بما فيهِ

وعن ذكر الفلك الأعلى، فليكمل هذا الكتاب الخوارزم شاهى على الجدّ الأعلى الأصعد، والطائر الأيمن الأسعد، لمولانا الملك السيد الأجل ولى النعمة، أطال الله بقاءه وأدام علاه، وخذل شانئه، وكبت أعداءه.

والعبد الخادم والصنيعة مؤلفه يقول:

تمّ الكتاب بدولة الملَك الذي قد صكَّ تاجُ علاه فوق الفرقد

خوارزم شاه البدر مأمون بن مأمون عماد المجد عَينِ السُّؤدد

لا زال بين سعادة وزفادةٍ وزيادةٍ في ظل ملكٍ سَرمدِ

والحمد لله العظيم جلاله ثمّ الصلاةُ على النبيِّ محمدِ

تمّ الكتابُ بحمد الله ومنّه وصلواته على نبيه محمد وآله أجمعين.

وكان الفراغ من كتابته في العُشر الأخير من شهر رجب الفرد من سنة [...] وألف على يد فقير رحمة ربه عمر السديسي غفر الله له ولمالكه، وللناظر فيه، ولمن دعا لهما بخير، والحمد لله وحده.

تم تم

مطابع آمون

٤ ش الفيروز متفرع من إسماعيل أباظة

لاظوغلي - القاهرة

تليفون : ٧٩٤٤٥١٧ _ ٧٩٤٤٣٥٦